وزارة التعليم العالي و البحث العلمي

جـــــامعة ديـــــالى

كـــــلية التربية الاساسية

أصول الدين

المرحلة الاولى

للعام الدراسي (٢٠١٦-٢٠١٧)

للفصل الدراسي الثاني

المبحث الثالث

النبوة العامة

المطلب الأول

النبوة ومهمتها

النبي والرسول في اللغة :

النبي في أصل اللغة :

وردت لفظة (النبي) مهموزة وغير مهموزة :

(١) فإذا كانت اللفظة بالهمز (النَّبِيء) فهي : ـ

أ ـ إما مشتقة من النَّبَأ ، وهو الخبر، فالنبيء هو المخبر (المُنْبِيء) عن الله تعالى.

ب ـ أو أن تكون من (النَّبِيء)، الذي هو الطريق الواضح، لأن الأنبياء هم الطرق الموصلة إلى الله تعالى.

(٢) وإن كانت بلا همز (النبي) فهي : ـ

أ ـ إما أن تكون همزتها مخففة.

ب ـ وإما أن تكون مشتقة من النبْوة أو النَّباوة، أي : الارتفاع. لأن النبي مرتفع الرتبة على غيره (١) .

---

(١) لسان العرب مادة (نبأ)، وكتاب سِيبَوَيه ج٢ ص ١٧٠ واشتقاق أسماء الله الحسنى للزجّاجي ص ٥٠٤ والبيان في غريب إعراب القرآن ج١ ص ٨٧ ـ ٨٨ والمسامرة ص ٢٣٢.
وغالب كتب علم الكلام تتحدث عن اشتقاق كلمة (النبي) في موضع الكلام عن المعنى الاصطلاحي.

الرسول في أصل اللغة :

لفظة الرسول مأخوذة :

أ ـ من قولهم جاءت الإبل رَسَلاً أي متتابعة، فالرسول هو الذي يتابع أخبار الذي بعثه (٢) .

ب ـ من رسل اللبن إذا تتابع درّه، لأن الرسول هو الذي يتتابع عليه الوحي (٣) .

النبي والرسول في الاصطلاح :

جاء القرآن الكريم بهاتين الكلمتين معاً في قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ﴾ / الحج ٥٢ .

وقد اختلف العلماء في بيان معناهما على أقوال أهمها : ـ

القول الأول :

النبي : إنسان أُوحي إليه بشرع (أي أحكام)، سواء أُمر بتبليغه والدعوة إليه أم لا، فإن أمر بذلك فهو نبي رسول.

فالفرق بينهما بالأمر بالتبليغ وعدمه (٤) .

فالنبي أعم من الرسول، أي : يلزم من كونه رسولاً أن يكون نبياً، ولا عكس (٥) .

---

(٢) لسان العرب مادة (رسل) .

(٣) أصول الدين للبغدادي ص ١٥٤ .

(٤) المسامَرَة ص ٢٣١ والدَّرْدِير على الخريدة ص ١٨ .

(٥) الصاوي على الدردير ص ١٨ وشرح العقيدة الطحاوية لابن أبي العز ص ١٠٥ ولوامع الأنوار ج١ ص ٤٩ وج٢ ص ٢٥٨ وذكر في شرح العقيدة الطحاوية ص ١٠٥ أيضاً : (ولكن الرسالة أعم من جهة نفسها، فالنبوة جزء من الرسالة، إذ الرسالة تتناول النبوة وغيرها، بخلاف الرسل فإنهم لا يتناولون الأنبياء وغيرهم، بل الأمر بالعكس. فالرسالة أعم من جهة نفسها، وأخص من جهة أهلها) .

وهذا القول هو المشهور (٦) . وبه قال الجمهور وعامة الأشاعرة (٧) وصححه المهدوي والقاضي عِياض في كتابه الشفا ، حيث قال : (والصحيح والذي عليه الجَمّاء الغَفِير ، أنّ كل رسول نبي ، وليس كل نبي رسولاً) (٨) .

القول الثاني :

النبي : إنسان بعثه الله لتبليغ ما أوحى إليه ، وكذا الرسول ، فلا فرق بينهما ، بل هما بمعنى واحد (٩) . وهو الذي عزاه ابن الهُمام إلى بعض المحققين (١٠) . وهو مذهب جمهور المعتزلة (١١) .

وردّ هذا القول بما يأتي : ـ

١ ـ بقوله تعالى : ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ ﴾ / الحج ٥٢ فلو كان النبي مساوياً للرسول لما عطف عليه ، لأن نفي أحد المتساويين يستلزم نفي الآخر (١٢) .

٢ـ حديث أبي ذَرّ في بيان عدد الرسل والأنبياء يقتضي أن الرسل هم غير الأنبياء ، وهذا القول يقتضي اتحادهما ، فهو مخالف للحديث (١٣) .

وهناك أقوال أخرى لا مجال لذكرها هنا (١٤) .

---

(٦) المسامرة ولوامع الأنوار والصاوي السابقة وفي شرح العقيدة الطَّحَاوية : (وهو أحسنها) .

(٧) حاشية المَرجاني ج١ ص ١٢ والكلنبوي ج١ ص ٩ .

(٨) الشفا ج١ ص ٢٥١ وتفسير القُرْطُبي ج٧ ص ٤٤٧٢ .

(٩) المسايَرة والمسامَرة عليها ص ٢٣١ والصاوي على الدَّرْدِير ص ١٨ واعلام النبوة للماوَرْدي ص ٣٨ والمقاصد ج٢ ص ١٧٣ .

(١٠) المسامرة السابق .

(١١) حاشية المرجاني ج١ ص ١٢ والكلنبوي ج١ ص ٩ .

(١٢) الكلنبوي على الدَّوّاني ج١ ص ٩ .

(١٣) المسامرة ص٢٣٢ والكلنبوي السابق . وسيأتي حديث أبي ذر في (الإيمان بالأنبياء والرسل) .

(١٤) انظرها في الكلنبوي على الدواني ج١ ص ٩ والمرجاني على الدواني ج١ ص ١١ ـ ١٣ =

اثبات النبوة

لا يكون إثبات النبوة إلا باجتماع أمرين :

أولهما : ادعاء النبوة.

ثانيهما : إظهار المعجزة.

فكل من ادعى النبوة وأظهر المعجزة تصديقاً لدعواه، فهو نبي (١٥).

وسيأتي تفصيل ذلك فيما بعد.

النبوة اصطفاء واختيار من الله عز وجل

النبوة فضل وهبة من الله تعالى لمن يشاء من عباده، فلا تنال بالكسب، ولا بتكلف العبادة واقتحام أشق الطاعات، ولا تدرك بتهذيب الروح وبتصفية النفس وتنقية البدن من رذائل الأخلاق، ولا بالوراثة، ولا أثر للذكاء فيها، ولا تأثير للمجتمع فيها (١٦).

قال تعالى : ﴿ ٱللَّهُ يَصْطَفِى مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ ٱلنَّاسِ ﴾ / الحج ٧٥ .

وقال : ﴿ قُلْ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلْقَآئِ نَفْسِىٓ ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ ﴾ / يونس ١٥ .

وقال : ﴿ يُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ أَنْ أَنذِرُوٓا۟ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱتَّقُونِ ﴾ / النحل ٢ .

= واعلام النبوة ص ٣٨ وشرح المقاصد ج٢ ص ١٧٣ وتفسير القرطبي ص ٤٤٧٢ وتفسير البيضاوي ص ٣٣٠ والمسامرة ص ٢٣١.

(١٥) شرح المواقف ص ٥٥٧ وشرح المقاصد ج٢ ص ١٨٣ والمسامَرة ص ٢٤٠ والدوّاني على العقائد العَضُدية ج٢ ص ٢٧٧.

(١٦) انظر لوامع الأنوار ج٢ ص ٢٦٧ والباجوري على الجوهرة ج٢ ص ٣٠ والمواقف وشرحه للجرجاني ص ٥٤٥ وشرح المقاصد ج٢ ص ١٧٣.

بشرية الرسل والأنبياء

الأنبياء والرسل بشر ، يأكلون ويشربون ، وينامون ويمرضون ، ويحزنون وينسون، ويجوعون ويعطشون، ويتزوجون ويغضبون ، ويتعبون ويستشيرون . . . ونحو ذلك من صفات البشر التي لا نقص فيها عليهم.

وإنما اختارهم الله عز وجل من جنس المرسل إليهم، ليكونوا على صلة وثيقة بهم، شاعرين بأحاسيسهم، مطلعين على ما يعانونه من آلام، مقيمين عليهم الحجة الدامغة بإيضاح الطريق المستقيم لهم. ودليل ذلك : ـ

أولاً : من القرآن الكريم :

أ ـ قوله تعالى : ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ / التوبة ١٢٨ .

ب ـ وقوله : ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ﴾ / الكهف ١١٠ وفصلت ٦ .

جـ ـ وقوله : ﴿قُل لَّا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ﴾ / الأعراف ١٨٨ .

د ـ وقوله : ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً﴾ / الرعد ٣٨ .

هـ ـ وقوله : ﴿قُل لَّا أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ﴾ / الأنعام ٥٠ .

ثانياً : ومن السنة النبوية :

أ ـ حديث أبي مسعود قال : أتى النبي صلى الله عليه وسلم رجل فكلمه، فجعل تُرْعَدُ فرائصُهُ ، فقال له : هوِّنْ عليك، فإني لستُ بملِك، إنما أنا ابن امرأة تأكل القَديد (١٧) .

---

(١٧) سنن ابن ماجة ـ كتاب الأطعمة ـ باب القديد ج٢ ص ١١٠١ .

ب ـ قوله صلى الله عليه وسلم : **(إنما أنا بَشرٌ أنسى كما تنسون، فإذا نسيتُ فذكروني)** / أخرجه البُخاري ومسلم (١٨) وغيرهما.

جـ تواضع الرسول الأعظم صلى الله عليه وسلم وسيرته تشهد ببشريته، ولا محال لأحد في إنكار ذلك.

د ـ عبوديته صلى الله عليه وسلم لله تعالى الظاهرة في كلامه وأدعيته، كما في الحديث : **(اللهم إني عبدُكَ وابن عبدك، ابن أمَتِك، ناصيتي بيدك، ماضٍ فيَّ حكمُك، عَدْلٌ فيَّ قضاؤك)** (١٩) وأمثاله كثير.

فوائد وقوع الأعراض البشرية بالأنبياء

تقدم أن الأنبياء بشر، يقع عليهم من الأعراض البشرية كالابتلاء والمرض والنسيان والفقر .... الخ ما يقع على سائر الناس، إلا أن لوقوع هذه الأعراض بالأنبياء فوائد تتلخص بما يأتي : ـ

(١) تعظيم أجورهم :

فالبلاء والأمراض يترتب عليه الأجر العظيم، لهذا قال النبي صلى الله عليه وسلم : أشد الناس بلاءً الأنبياء، ثم الأمثل فالأمثل (٢٠).

وقال الإمام القُشَيْري : ليس كل أحد أهْلاً للبلاء، إذ البلاء للأولياء، وأما الأجانب فيتجاوز عنهم، ويخلي سبيلهم.

(٢) التشريع :

فسهو رسول الله صلى الله عليه وسلم في الصلاة تشريع للناس، وتعليم لهم

---

(١٨) أخرجه البُخاري في كتاب الصلاة ـ باب التوجه نحو القبلة ج١ ص ١١١ ومسلم في كتاب المساجد ـ باب السهو في الصلاة ج١ ص ٤٠٠ واللفظ لهما.

(١٩) رواه أحمد في مسنده ج١ص ٤٥٢.

(٢٠) أخرجه أحمد والبُخاري والتِّرمِذي وابن ماجة عن سعْد، وهو صحيح / الجامع الصغير ج١ ص ٤٢.

كيفية سجود السهو، لأن دلالة الفعل أقوى من دلالة القول.

(٣) تسلي غير الأنبياء بأحوالهم إذا نزل بهم ما نزل بالأنبياء :

فإذا نظر العاقل في أحوال الأنبياء، من مرض وأسقام، وقلة مال وأذى الناس لهم، مع علو مقامهم ورفعة شأنهم، فإنه يتسلى ويتصبر، فلم يحزن على ما نزل به من بلاء.

(٤) تنبيه غير الأنبياء على خسة قدر الدنيا عند الله تعالى ، حين يرون الأنبياء قد أعرضوا عنها ، وانصرفوا عن ملاذها ومغانمها.

وذم الدنيا الوارد في بعض النصوص، إنما هو في الدنيا الشاغلة عن الله تعالى، وعليه يحمل قوله صلى الله عليه وسلم : **(ألا إن الدنيا ملعونة، ملعون ما فيها، إلا ذكر الله وما والاه وعالم أو متعلم)** (٢١) أي : من التسبيح والتحميد والتهليل.

أما الدنيا التي لم تشغل عنه فلا ذم فيها ، بل هي محمودة ، وعليه يحمل قوله صلى الله عليه وسلم : **(نِعْمَ الدنيا مطيّةُ المؤمن ، بها يصل إلى الخير ، وبها ينجو من الشر)** . وبذلك يعلم : أن الدنيا ليست محمودة، ولا مذمومة لذاتها (٢٢) .

الإيمان بالأنبياء والرسل

الإيمان بالأنبياء والرسل جميعهم وتصديقهم في أخبارهم وطاعتهم في أوامرهم ونواهيهم فرض على كل مسلم (٢٣) ، بدلالة القرآن الكريم :

---

(٢١) أخرجه الترمذي ـ كتاب الزهد ـ باب الدنيا ملعون ما فيها إلا ذكر الله أو عالم متعلم. ج٧ ص ٨٠.

(٢٢) الدّردير على الخريدة ص ١٠٩ ـ ١١٠ والصاوي عليه، والبيجوري على السّنوسية ص ٤٤ ـ ٤٥.

(٢٣) لوامع الأنوار ج٢ ص ٣٦٣.

أ ـ قال تعالى : ﴿ قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِىَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴾ / البقرة ١٣٦ .

ب ـ وقال سبحانه : ﴿ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ ﴾ / البقرة ٢٨٥ .

جـ ـ وجعل للذين يؤمنون بالجميع الأجر العظيم ، قال تعالى : ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَلَمْ يُفَرِّقُواْ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ أُوْلَٰٓئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أُجُورَهُمْ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ / النساء ١٥٢ .

عدد الأنبياء

قدر الله تعالى ما يحتاج إليه الناس بمجموعهم من المواهب والكفاءات المختلفة التي تهيىء لهم الحياة الرغيدة والعيش السعيد، فوزعها بين الأفراد بناء على حاجتهم إليها، فرجال الجيش ـ وهم أصحاب القوة والأجسام الشديدة ـ والنجّارون والحدّادون والزراعون وأصحاب المهن كثيرون جداً، بينما يقل عدد ذوي الكفاءات القيادية أو العلمية، ويهبط عدد مالكي المهارة والحذق في لون معين، ويتضاءل عدد مالكي قيادة العالم الفكرية وأصحاب الهداية إلى سواء السبيل وهم الأنبياء والرسل، لأن أعمالهم تغني البشر إلى أجيال طويلة.

فلو أخذنا بحديث الأنبياء وهم (١٢٤٠٠٠) نبي، والرسل منهم (٣١٣) رسولاً. نرى العدد ضئيلاً جداً بالنسبة لأمم العالم جميعاً من بدء الخليقة إلى زمن الرسول محمد صلى الله عليه وسلم، ولا يقاس إلى تلك الأجيال القادمة (٢٤) .

لكن لا ينبغي في الإيمان بالأنبياء القطع بحصرهم في عدد معين، لأنه :

---

(٢٤) مبادىء الإسلام ص ٣٣.

١ ـ لم يرد بحصرهم دليل قطعي من القرآن، والحديث الوارد (٢٥) في عددهم ضعيف، وهو : خبر واحد، لم يقترن بما يفيد القطع، وخبر الواحد لا يفيد إلا الظن، ولا عبرة بالظن في باب الاعتقادات.

٢ ـ وقد يؤدي حصرهم بهذا العدد إلى أن يعتبر فيهم من ليس منهم أو يخرج من هو منهم (٢٦).

لكن القرآن الكريم ذكر أسماء خمسة وعشرين وهم : آدم، وإدريس، ونوح، وهود، وصالح، وإبراهيم، ولوط، وإسماعيل، وإسحاق، ويعقوب، ويوسف، وشعيب، وأيوب، وذو الكفل، وموسى، وهارون، وسليمان، وداود، وإلياس، واليَسَع، ويونُس، وزكرِيَّا، ويحيى، وعيسى، ومحمد صلى الله عليه وسلم.

---

(٢٥) في مسند أحمد رضي الله عنه من حديث أبي ذَرّ رضي الله عنه : (**قلت يا نبي الله : كم عدد الأنبياء؟ قال مئة ألف وأربعة وعشرون، الرسل من ذلك ثلاثمائة وخمسة عشر جَمَّاً غَفِيراً**) .

ورواه الطَّبَراني في المُعْجَم الكبير بلفظ : وأربعة وعشرون ألفاً. وهي مصرحة بما أبهم في رواية أحمد.

ومدار الحديث على علي بن يزيد وهو ضعيف / المسامرة ص ٢٢٦.

وله لفظ آخر في صحيح ابن حبّان، وعدد الرسل فيه : (ثلاثمائة وثلاثة عشر) / لوامع الأنوار ج٢ ص ٢٥٨.

وتكلم فيه ولي الدين العراقي، وردّ على ابن حبّان جماعة من الحفاظ، لإدخاله هذا الحديث في الصحيح / لوامع الأنوار ج٢ ص ٢٦٤ وللحديث ألفاظ أخرى بأسانيد أخرى من مسند أحمد والبزّار والطَّبَراني في الأوسط الذي ذكر في مجمع الزوائد. / المسامرة ص ٢٢٦. وذكر ابن قُطلوبُغا الخبر عن رواته إسحاق بن راهَوَيْه وابن أبي شَيْبة ومحمد بن أبي عمر وأبي يَعْلى / ابن قُطْلوبُغا على المسايَرة ص ٢٢٥.

(٢٦) شرح المقاصد ج٢ ص ١٩٨ وشرح العقائد النسَفية ص ١٣٥ ـ ١٣٦ والمسايَرة والمسامَرة عليها ص ٢٢٥ والدَّرْدِير على الخريدة ص ١١٩ ولوامع الأنوار ج٢ ص ٢٥٨.

تكذيب الأنبياء أو تنقيصهم كفر

وهم جميعاً يشتركون في قدر واحد وهو : النبوة والرسالة.

ولذا اتفق علماء الإسلام جميعاً على كفر من كذب نبياً معلوم النبوة، وكذا من سب نبياً أو انتقصه، ويجب قتله بدلالة القرآن الكريم :

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١٥٠﴾ أُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا﴾ / النساء ١٥٠ - ١٥١ (٢٧).

مهمة الأنبياء

وبعثتهم إلى أمم العالم جميعاً

الأنبياء والرسل هداة البشر إلى الصراط المستقيم، وأهل المبادىء التهذيبية التي عالجت المشاكل المادية والروحية يبشرون بالجنة أهل التقى، وينذرون بالنار أهل الفساد والكفر، ويبينون للناس ما يحتاجون إليه من أمور الدين والدنيا.

وقد أرسلهم الله تعالى إلى أمم العالم جميعاً ، فكل أمة لها رسول ، وإن لم يخبرنا الله بأسمائهم بدلالة قوله تعالى : -

أ - ﴿ وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴾ / فاطر ٢٤ .

ب - ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ﴾ / النحل ٣٦ .

جـ - ﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِي أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَىٰ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ﴾ / القصص ٥٩ .

هذه النصوص جميعاً تدل على أن بعث الأنبياء، لا ينحصر في أمة معينة، أو مكان معين كالجزيرة العربية.

---

(٢٧) لوامع الأنوار ج٢ ص ٢٦٣.

القرآن الكريم والكتب السماوية الأخرى

أصول الرسالات السماوية وعقائدها وهدفها واحد، وهو : توجيه البشر إلى طريق الصلاح، قال تعالى :

﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ ﴾ / الشورى ١٣ .

وقال سبحانه : ﴿ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ ﴾ / النساء ٥٩ .

ولذلك طلب القرآن الكريم الإيمان بجميع الرسل، وما أنزل عليهم من كتب : ﴿ وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ ﴾ / البقرة ٤ .

لكن الإيمان المطلوب شرعاً بالكتب السماوية ـ ومنها الانجيل والتوراة والزبور ـ ، إنما يراد به التصديق بأن هذه الكتب كانت من عند الله تعالى، وكانت صادقة، وما جاءت إلا للغرض الذي جاء لإتمامه القرآن. فما جاء بها مخالفاً لما في القرآن الكريم فهو مُحرَّف قطعاً ، لا يعوَّل عليه.

وهنا لا بد أن نبين أهم فروق القرآن الكريم عن الكتب السماوية لما يأتي : ـ

(١) الكتب التي نزلت قبل القرآن ضاعت نُسخُها الأصلية ، ولم يبق منها إلا ترجمتها.

أما القرآن فهو محفوظ بلفظه وبكلماته، التي أنزلها الله تعالى على نبيه محمد صلى الله عليه وسلم، ووصل إلينا بهذا الشكل متواتراً.

(٢) اختلط كلام الناس من فقهاء أو مفسرين أو مؤرخين بتلك الكتب. أما القرآن فلم يختلط به شيء حتى من كلام رسول الله صلى الله عليه وسلم. ولقد منع النبي صلى الله عليه وسلم من كتابة الحديث في بداية نزول القرآن، لئلا يختلط الحديث بالقرآن. وكتب التفسير والحديث والفقة مستقلة تماماً عن القرآن، كما هو معروف.

(٣) لم يستطع أحد أن يثبت باستناد تاريخي أن أيا من هذه الكتب الموجودة الآن

نزل على النبي الذي نسب إليه ذلك الكتاب، كما لم يمكن تعيين الزمن الذي نزل به.

أما القرآن فالتاريخ قاطع بشواهده أنه نزل على محمد صلى الله عليه وسلم، وأن آياته منها ما عُيِّن مكان نزوله أو زمنه أو سببه.

(٤) لغات الكتب السماوية القديمة اندرست منذ زمن طويل، فلم نجد متكلماً بها، بل إن من يفهمها قليل جداً.

أما لغة القرآن الكريم فهي لغة حية يتكلم بها إلى الآن مئات الملايين من المسلمين في أقطار العالم المختلفة.

(٥) أحكام كل من الكتب القديمة ـ كما يبدو من قراءتها ـ خاصة بالزمن وبالأمة التي نزل فيها ذلك الكتاب، جاءت تلبية لحاجاته ووفق أحواله.

في حين أن أحكام القرآن عامة لجميع الناس ولكل زمان.

(٦) كل من الكتب القديمة وإن كان فيه من الدعوة إلى الخير والصلاح والأخلاق، فانه لم يستوف الفضائل.

لكن القرآن استوفى الفضائل كاملة، سواء نص عليها في الكتاب القديم أم لم ينص.

(٧) تسرب إلى كل من الكتب القديمة التحريف (٢٨) والأمور التي لا توافق العقل، وتقوم على الظلم، بل تحوي أموراً من قبيل الفحشاء والمنكر.

أما القرآن فإنه صلاح كله ومنزه عن الفاحشة وليس فيه ما يخالف العقل (٢٩).

---

(٢٨) انظر الفصل الذي كتبه العالم الجليل رحمة الله الهندي في كتابه (إظهار الحق) الذي أثبت فيه تحريف الكتب السماوية التي سبقت القرآن.

(٢٩) انظر مبادىء الإسلام للسيد أبي الأعلى المودودي ص ٨٠ ـ ٨٤.

(٨) الشرائع القديمة اختصت بالعلاج الروحي، أما الشريعة الإسلامية فقد وضعت المبادىء الكفيلة بحلّ مشاكل الإنسان وتلبية حاجاته المادية والروحية في كل زمان ومكان.

هذه المزايا هي التي لأجلها أمر الناس باتباع القرآن وحده دون سواه.

المطلب الثاني

مستلزمات النبوة

١

صفات الرسل والأنبياء

جبل الله تعالى بعض الناس على مواهب معينة كالقوة والشعر والفنون . . . يتفوق بها على الآخرين، ووهب الأنبياء والرسل الكفاءة العالية لقيادة الناس وهدايتهم إلى الصراط المستقيم، لذلك امتازوا بصفات فيها جميع خصال الخير، بعيدة عن جميع النقائض، التي لا تليق بهم.

هذه الصفات هي : ـ

الصفة الأولى

العصمة

العصمة لغة : الحفظ.

واصطلاحاً : هي لُطف من الله تعالى، يحمله على فعل الخير، ويزجره عن فعل الشر. مع بقاء الاختيار، تحقيقاً للابتلاء (٣٠) .

أو بتعريف آخر :

هي أن لا يخلق الله تعالى فيهم ذنباً (٣١) .

والذنب إما أن يكون من الكبائر أو من الصغائر.

---

(٣٠) المسامَرة ص ٢٢٩.

(٣١) الدوَّاني على العقائد العضُدية ج٢ ص ٢٧٩ والمواقف ص ٥٧٥.

النوع الأول

العصمة من الكبائر

للكبائر تعاريف مختلفة، أرجحها :

أنّ الكبائر هي : ما تَرتب عليها حدٌّ أو توعد عليها بالنار أو اللعنة أو الغضب.

أما الصغائر فهي : ما ليس فيها حد في الدنيا، ولا وعيد في الآخرة (٣٢).

والكبائر إما كفر أو كذب أو غيرهما من الذنوب الكبيرة الأخرى. وتفصيل عصمة الأنبياء عن هذه الأنواع من الكبائر هو :

أولاً : العصمة من الكفر : ـ

اتفق جمهور المسلمين على أن الأنبياء عليهم السلام معصومون من الكفر قبل الوحي وبعده، ولا يجوز الكفر عليهم في حال صغرهم تبعاً للوالدين، لأنهم مؤمنون بالله، عارفون به حقيقة، فلا يجرى عليهم حكم الكفر تَبَعاً (٣٣).

ثانياً : العصمة من الكذب : ـ

الصدق : هو مطابقة حكم الخبر للواقع.

وأنواعه ثلاثة :

(١) الصدق في دعوى الرسالة.

(٢) الصدق في ما يبلغونه عن الله عز وجل إلى الناس من الأحكام الشرعية.

---

(٣٢) شرح العقيدة الطحاوية لابن أبي العز ص٣٥٦ والشورى بين النظرية والتطبيق ـ د. قحطان الدوري ص ١١٤ ـ ١١٥.

(٣٣) ابن قُطلوبُغا على المسايَرة ص ٢٢٧ ـ ٢٢٨ وانظر الدَّوَّاني السابق وشرح العقائد النَّسَفية للتفتازاني ص ١٣٦ وشرح المقاصد ج٢ ص ١٩٣، والمواقف ص ٥٦٧ ولوامع الأنوار ج٢ ص ٣٠٤.

(٣) الصدق في جميع ما ينطق به مما يتعلق بأمور الدنيا (٣٤) .

وضده : الكذب.

ويستحيل صدور الكذب عن الأنبياء على سبيل العمد كما أجمع أهل الملل والشرائع كلها، ويستحيل صُدوره على سبيل السهو والنسيان عند أكثر الأئمة الأعلام. وهو المعتمد على ما أفاده المحققون (٣٥) .

والدليل العقلي على صدق الأنبياء هو :

أ ـ لو جاز عليهم الكذب والافتراء، للزم الكذب في خبره تعالى، وهو محال، لأنه تعالى صدقهم بالمعجزات (٣٦) .

ب ـ الكذب معصية، وهم معصومون منها.

جـ ـ لو كذبوا، وعرف الناس منهم ذلك، لانتفت فائدة الرسالة (٣٧) .

والدليل النقلي على صدقهم :

أ ـ قوله تعالى : ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ﴾ / النجم ٣ ـ ٤ .

ب ـ قوله تعالى : ﴿ وَصَدَقَ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴾ / يس ٥٢ .

جـ ـ قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ۝٤٤ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ۝٤٥ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ ۝٤٦ فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَٰجِزِينَ ﴾ / الحاقة ٤٤ ـ ٤٧ .

د ـ في الحديث : قالوا يا رسول الله : إنك تداعبنا . قال : **إني لا أقول إلا حقاً** .

---

(٣٤) رسالة في التوحيد للطائي ص ٦٧ والدُّرْدِير ص ١٠٥ .

(٣٥) المواقف ص ٥٦٧ والدواني ج٢ ص ٢٧٩ وشرح العقائد النسفية ص ١٣٦ ولوامع الأنوار ج٢ ص ٣٠٧ والوسيلة ص ٦٩٥ .

(٣٦) المواقف والدردير والطائي ولوامع الأنوار السابقة وشرح الباجوري على الجوهرة ج٢ ص٢٤ .

(٣٧) رسالة في التوحيد السابقة .

أما ما ظاهره الكذب في حق الأنبياء ، كما في واقعة إبراهيم الخليل عليه السلام حين كسر الأصنام ، وأبقى كبيرها فقط ، فلما سئل ﴿ قَالُوٓاْ ءَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿٦٢﴾ قَالَ بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُواْ يَنطِقُونَ ﴾ / الأنبياء ٦٢ ـ ٦٣ ، فإنه يؤول بأن قصده عليه السلام التبكيت والاستهزاء ، لأنه لم يكن عند الأصنام غيره ، فما فائدة قولهم من فعل هذا ؟ (٣٨) .

وقيل معناه : سلوهم إن نطقوا فإنهم يصدقون، وان لم يكونوا ينطقون فليس هو الفاعل. وفي ضمن هذا الكلام اعتراف بأنه هو الفاعل. فقوله هذا من المعاريض، وفي المعاريض مندوحة عن الكذب، وهو الذي صححه القُرْطُبي (٣٩) وقيل غيره (٤٠) .

ثالثاً : العصمة من الكبائر الأخرى : ـ

ونبين هنا حال صدور الكبيرة عنهم عمداً أو سهواً، قبل البعثة أو بعدها.

قبل البعثة :

الأنبياء قبل بعثتهم معصومون عن صدور الكبيرة، التي توجب النفرة منهم، كعهر الأمهات والفجور في الآباء (٤١) .

---

(٣٨) الصاوي على الدردير ص ١٠٥ وتفسير البَيْضاوي ص ٣٢١.
وحديث المداعبة في سنن الترمذي ـ كتاب البر ـ باب ما جاء في المزاح ج٦ ص ٢٠٦ وهو حديث حسن صحيح.

(٣٩) تفسير القُرْطُبي ج٦ ص ٤٣٤٠.

(٤٠) تفسير البيضاوي السابق وغيره من التفاسير.

(٤١) شرح العقائد النَّسَفية للتَّفْتازاني ص ١٣٦ والدَّوَّاني ج٢ ص ٢٧٩ نقلاً عن شرح العقائد.
وانظر أقوالاً أخرى في المواقف ص ٥٦٨ والدواني والوسيلة ص ٦٩٥.

وبعد البعثة :

هم معصومون منها عمداً، وهو قول الجمهور من المحققين والأئمة.
ومعصومون منها سهواً أو على سبيل الخطأ في التأويل، وهو المختار (٤٢) .

النوع الثاني

العصمة من الصغائر

الصغائر نوعان :

أ ـ صغائر الخسة التي تلحق فاعلها بالأراذل ، كسرقة حَبَّة أو لقمة والتطفيف بتمرة.

والأنبياء قبل البعثة : معصومون منها (٤٣) .

وبعد البعثة كذلك، فلا تصدر عنهم أصلاً لا عمداً ولا سهواً بالاتفاق (٤٤).

ب ـ الصغائر الأخرى :

والأنبياء غير معصومين منها، قبل البعثة عمداً وسهواً.

أما بعد البعثة فهم معصومون منها عمداً، وتجوز سهواً، لكن لا يُصِرون عليها، ولا يُقَرُّون من الله تعالى عليها، بل ينُبهون فيتنبهون. وعليه المحققون من المحدثين والسلف الصالح (٤٥) .لقوله صلى الله عليه وسلم : **(إنما أنا بَشرٌ أنسَى كما تنسَون ، فإذا نسِيت فذكروني)** / أخرجه البُخاري ومسلم (٤٦) وغيرهما.

---

(٤٢) المواقف ص ٥٦٧ والوسيلة السابق. وقارن بشرح العقائد للتفتازاني ص ١٣٦ .

(٤٣) شرح العقائد للتفتازاني وشرح الدَّوَّاني السابقان.

(٤٤) المواقف وشرح العقائد والوسيلة السابقة. والمسامرة ص ٢٣٣.

(٤٥) الدواني ج٢ ص ٢٧٩ وشرح المقاصد ج٢ ص ١٩٣ والمواقف وشرحه ص ٥٦٨ ولوامع الأنوار ج٢ ص ٣٠٤ والمسايرة والمسامرة عليها ص ٢٣٢ وهناك أقوال أخرى في هذه المصادر وفي شرح العقائد ص ١٣٦ والوسيلة ص ٦٩٥.

(٤٦) المسايرة والمسامرة عليها ص ٢٣٤. وقد تقدم تخريج الحديث آنفاً.

أدلة عصمة الأنبياء

استدل العلماء على عصمة الأنبياء بأدلة كثيرة منها : ـ

١ ـ لو صدر منهم الذنب، لحرم أتباعهم فيما يصدر عنهم، مع أن أتباعهم فرض وللإجماع، ولقوله تعالى : ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ ﴾ / آل عمران ٣١ .

٢ ـ لو أذنبوا لردت شهادتهم ، إذ لا شهادة لفاسق بالاجماع ، ولقوله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقٌۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓا۟ ﴾ / الحجرات ٦ ، لأن من لا تُقبل شهادته في القليل الزائل من متاع الدنيا، كيف تسمع شهادته في الدين القيم ؟

٣ ـ إنْ صدر عنهم ذنب وجب زجرهم وتعنيفهم، لعموم وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ولا شك أنّ زجرهم إيذاء لهم، وإيذاؤهم حرام إجماعاً، لقوله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُّهِينًا ﴾ / الأحزاب ٥٧ .

٤ ـ لو أذنبوا لاستحقوا العذاب واللوم والطعن ، لدخولهم تحت قوله تعالى : ﴿ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ﴾ / الجن ٢٣، وقوله سبحانه ﴿ أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ ﴾ / البقرة ٤٤، لكن ذلك منتفٍ بالإجماع، ولكونه من أعظم المنفرات.

٥ ـ قوله تعالى في إبراهيم وإسحاق ويعقوب ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ ﴾ / الأنبياء ٩٠ ، فيتناول جميع الخيرات من الأفعال والتروك ، وقوله ﴿ وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ ٱلْمُصْطَفَيْنَ ٱلْأَخْيَارِ ﴾ / ص ٤٧، أي: من المصطفين الأخيار في كل الأمور، فلا يجوز صدور ذنب عنهم (٤٧) .

٦ ـ لو جاز عنهم أن يخونوا الله تعالى بفعل محرم أو مكروه، للزم أن يكون ذلك

---

(٤٧) المواقف وشرحه ص ٥٦٨ ـ ٥٦٩ وشرح المقاصد ص ١٩٣ ـ ١٩٤ وفيهما أدلة أخرى لا نذكرها خشية الإطالة.

المحرم أو المكروه طاعة، لأن الله تعالى أمرنا بطاعتهم واتباعهم في أقوالهم وأفعالهم من غير تفصيل. فكل ما صدر منهم فنحن مأمورون به، وكل مأمور به، فهو طاعة، لأن الله تعالى لا يأمر بالفحشاء (٤٨).

وما نقل عن الأنبياء مما يشعر بمعصيته :

فما نقل بطريق خبر الأحاد فمردود، لأن نسبة الخطأ إلى الرواة أهون من نسبة المعاصي إلى الأنبياء.

وما نقل بطريق التواتر فيفسر :

بأنه نسيان أو زلّة ،

أو بأنه حدث قبل البعثة ،

أو بأنه من الصغائر ،

أو بأنه من قبيل ترك الأَوْلى والأفضل (٤٩).

وترك النبي صلى الله عليه وسلم الأفضل إنما هو في الأمور التي لم يرد بها نص صريح. فهو يعمل نظره وفكره، ويبذل وسعه أولاً، ومع ذلك فهو يخطىء فيعاتب عندئذ على تركه الأفضل.

ومن النصوص التي تشعر بمعاصي الأنبياء :

أولاً : ـ ما ورد في قصة آدم عليه السلام في القرآن الكريم :

قوله تعالى : ﴿ وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ﴾ / طه ١٢١ . .

والعصيان من الكبائر، بدلالة قوله تعالى : ﴿ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ﴾ / الجن ٢٣ .

---

(٤٨) الدَّرْدِير على الخريدة ص ١٠٥ والباجوري على السَّنُوسية ص ٤٠٢ و ٤٣ .

(٤٩) شرح المقاصد ج٢ ص ١٩٤ وانظر : شرح العقائد للتفتازاني والعصام عليه ص ١٣٦ ـ ١٣٧ والدَّواني ج٢ ص ٢٧٩ عن شرح العقائد، والمواقف وشرحه ص ٥٦٩ .

والغواية اتباع الشيطان ، لقوله تعالى : ﴿ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴾ / الحجر ٤٢ . وقوله تعالى : ﴿ فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ ﴾ / البقرة ٣٦ . واستحقاق الإخراج من الجنة بسبب إزلال الشيطان لهما، يدل على أن الصادر منهما كبيرة .

وخالف آدم النهي عن الأكل من الشجرة، وارتكاب المنهي عنه ذنب .

أجيب عنها :

بأن ذلك كان قبل البعثة، لأنه لم تكن له في الجنة أمة .

وكان ذلك عن نسيان ، لقوله تعالى : ﴿ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا ﴾ / طه ١١٥ .

أو كان زلة وسهواً، حيث ظن آدم عليه السلام أنّ المنهي عنها شجرة بعينها، وقد قرب فرداً آخر من جنسها (٥٠) .

ثانياً : ـ ما ورد في قصة موسى عليه السلام من قتله المصري ﴿ فَوَكَزَهُ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ ﴾ / القصص ١٥ .

وقتله كان عدواناً ، لقوله سبحانه : ﴿ قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ ﴾ / القصص ١٥ وقوله تعالى : ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَٱغْفِرْ لِي ﴾ / القصص ١٦ .

وقوله عزَّ وجل ﴿ فَعَلْتُهَا إِذًا وَأَنَا۠ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴾ / الشعراء ٢٠ .

أجيب :

بأن قتلهُ المصري كان قبل النبوة ،

وجاز أن يكون قتله خطأ .

وما صدر منه من أقوال، فهو محمول على التواضع وهضم النفس (٥١) .

---

(٥٠) شرح المقاصد والمواقف وشرحه السابقان .

(٥١) شرح المواقف ص ٥٧١ وانظر شرح المقاصد ج٢ ص ١٩٦ .

ثالثاً : ـ ما ورد في حق نبينا محمد صلى الله عليه وسلم من نصوص مثل :

١ ـ قوله تعالى: ﴿ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ ﴾ / غافر ٥٥ ومحمد ١٩ . وقوله سبحانه: ﴿ لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ ﴾ / التوبة ١١٧ .

وقوله تعالى : ﴿ لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ ﴾ / الفتح ٢ ، فأسند الذنب للنبيّ صلى الله عليه وسلم وتاب عليه، ولا وجود للتوبة إلا مع الذنب.

أُجيب :

بأن ذلك الذنب كان قبل النبوة ،

أو إنه محمول على ما فرط منه من الزلة وترك الأفضل ،

أو نسب إليه ذنب قومه، فإن رئيس القوم قد ينسب إليه ما يفعله أتباعه. أي: استغفر لذنب أمتك، وتاب الله على أمة النبي، وليغفر لأجلك ما تقدم من ذنب أمتك، وما تأخر عنه (٥٢) .

٢ ـ وقوله تعالى : ﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ۝١ أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ ﴾ / عبس ١ ـ ٢ .

أُجيب :

بأنه محمول على أنه عتاب على ترك الأفضل والأولى مما يليق بخلقه العظيم، ومثله يعاتَب على مثله (٥٣) ، فأخطأ في اجتهاده، فعبس في وجه الأعمى ابن أم مكْتوم، حين جاء يسأله عن الدين ، لأنه رأى أن مجادلة صناديد قريش قد تؤدي إلى أنهم سيميلون إليه فيسلمون ، وأن الإعراض عنهم قد يزيد في حقدهم ونفرتهم عن الإسلام.

لذلك انشغل بهم عن ابن أم مكتوم الأعمى المسلم، الذي جاء مستزيداً من الإسلام. فالأولى أن لا يعبس بوجهه، فيتولى عنه، بل يتلطف معه، لما له من منزلة الإسلام.

---

(٥٢) شرح المواقف ص ٥٧٤ ـ ٥٧٥ ، وشرح المقاصد ج٢ ص ١٩٧ .

(٥٣) شرح المقاصد ج٢ ص ١٩٧ ، والمواقف وشرحه ص ٥٧٥ .

٣ ـ وقوله تعالى : ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ﴾ / التوبة ٤٣ .

أُجيب :

بأنه تلطف في الخطاب، وعتاب على ترك الأفضل، وإرشاد إلى الاحتياط في تدبير الخيرات (٥٤) . فإنه صلى الله عليه وسلم أذن لجماعة تعللوا بأعذار ـ كان الأولى أن لا تُقبل منهم ـ فتخلفوا عن غزوة تَبُوك، وتارك الأفضل في أمور الحرب قد يعاقب.

٤ ـ وقوله تعالى : ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٧﴾ لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ الأنفال ٦٧ ـ ٦٨ .

أُجيب : بأنه محمول على ترك الأفضل.

لأن الرسول صلى الله عليه وسلم حين استشار أصحابه في أخذ الفداء من أسرى بدر، ومنهم سبعون من أشراف قريش، وآثر أكثرهم أخذ الفداء على القتل، اجتهد فأيدهم، لأنه رق لحالهم، ورجا أن يسلموا، أو يخرج من أصلابهم المؤمنون، ولينتفع المسلمون بمال الفدية في شؤونهم، فأخطأ في اجتهاده وكان الأفضل أن لا يؤثر أخذ الفداء على نصرة الإسلام (٥٥) .

وبعد كل هذا : ـ فإن الله تعالى لم يُبقِ رسوله على خطأ، لأنه لو أقره على الخطأ، لتساوى الخطأ والصواب في الشرع، ولكان ذلك تضليل ومدعاة إلى التشكيك في الشريعة.

وكان الرسول صلى الله عليه وسلم يرجع إلى الصواب الذي بينه الله تعالى له، ولا يكتم من الوحي شيئاً من تسجيل الخطأ عليه، أو توجيه العتاب إليه (٥٦) .

---

(٥٤) شرح المقاصد السابق.

(٥٥) شرح المواقف ص ٥٧٤ وانظر أمثلة أخرى من هذا في شرح المواقف وشرح المقاصد وشرح قاسم بن قُطلوبُغا على المسايرة ص ٢٣٢ ـ ٢٣٣.

(٥٦) مناهل العرفان ج٢ ص ٢٨٨.

حكمة تسجيل زلة الأنبياء :

فإن قيل : فما بال زلة الأنبياء حكيت في القرآن، بحيث تتلى على مر الزمان، مع أن الله تعالى غفار ستار، وقد أمرنا بالستر على مرتكب الذنب ؟

أُجيب :

بأن تسجيل زلتهم يدل على : ـ

١ـ صدق الأنبياء، وأن ما يبلغونه يكون بأمر الله تعالى بلا إخفاء شيء منه.

٢ ـ أن الأنبياء على جلالة قدرهم وكثرة طاعتهم، يلجؤون إلى الله تعالى دائماً بالاستغفار والتضرع في أدنى زلة، فعلى الناس ـ وهم أدنى مرتبة منهم بكثير ـ أن يتضرعوا إلى الباري كل حين.

٣ ـ أن الصغائر ليست مما يقدح في الإيمان ، فلا تكفر الانسان (٥٧) .

الصفة الثانية

التبليغ

هو إيصال الأحكام التي أُمروا بتبليغها إلى المرسَل إليهم (٥٨) ، ليرشدوهم إلى سعادة الدنيا والآخرة، وكل منهم لم يخفِ عن الناس من ذلك شيئاً عمداً أو سهواً (٥٩) .

وأقسام الموحى به ثلاثة :

١ ـ قسم أُمروا بكتمانه. فهو خاص بينهم وبين ربهم.

٢ ـ قسم خُيروا فيه بين التبليغ وعدمه.

---

(٥٧) شرح المقاصد ج٢ ص ١٩٨ .

(٥٨) الدَّرْدِير على الخريدة ص ١٠٨ .

(٥٩) رسالة في التوحيد للطائي ص٦٨ .

٣ ـ قسم أُمروا بتبليغه.

وهذا القسم (الأخير) هو الذي بلغوه إلى من أرسلوا إليه، لأنهم مأمورون بتبليغه، لوجوبه عليهم (٦٠).

والدليل العقلي على وجوبه :

١ ـ أنهم لو كتموا شيئاً مما أمروا بتبليغه للخلق، لكنا مأمورين بكتمان العلم، لأن الله أمرنا بالاقتداء بهم، مع أن الأحاديث صريحة في أن كاتم العلم ملعون (٦١).

٢ ـ أنهم لو كتموا شيئاً مما أمروا بتبليغه، لكانوا خائنين، مع أنهم معصومون عن الخيانة (٦٢).

٣ ـ أنهم مبشرون ومنذرون، لقوله تعالى : ﴿ رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ ﴾ / النساء ١٦٥ ولا يتم التبشير والإنذار إلا بالتبليغ.

٤ ـ لو أنهم كتموا ما أمروا بتبليغه لكانوا ملعونين بنص الكتاب :

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلْنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلْهُدَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِى ٱلْكِتَٰبِ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ يَلْعَنُهُمُ ٱللَّهُ ﴾ / البقرة ١٥٩ (٦٣).

والدليل النقلي :

قوله تعالى : ﴿ مَّا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ﴾ / المائدة ٩٩.

وقوله : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ ﴾ (٦٤) / المائدة ٦٧.

---

(٦٠) الصاوي على الدردير ص ١٠٩ ورسالة في التوحيد السابقة

(٦١) الباجوري على الجوهرة ج٢ ص ٢٥.

(٦٢) الدردير ص ١٠٨ ورسالة في التوحيد ص ٦٩ ولوامع الأنوار ج٢ ص ٣٠٨.

(٦٣) الدردير ص ١٠٨ ـ ١٠٩.

(٦٤) الدردير ورسالة في التوحيد السابقان.

الصفة الثالثة

الفطانة

هي : التيقظ والتفطن وحِدّة العقل والذكاء وسَداد الرأي.

فكل رسول ونبي تجب له هذه الصفة، فلا يجوز أن يكون مغَفَّلاً أو بليداً أو أبله (٦٥) .

الدليل العقلي على وجوب هذه الصفة للأنبياء :

١ ـ لأنهم أرسلوا لإقامة الحجج وإبطال شبَه المجادلين، ولا يكون ذلك من البله أو من المغفلين (٦٦) .

٢ ـ لأنهم ساسة الجميع ومرجعهم في المشكلات (٦٧) .

٣ ـ لأننا مأمورون بالاقتداء بهم في الأقوال والأفعال، والمقتدى به لا يكون بليداً.

٤ ـ والبلادة والغلظة صفة نقص، تخل بمنصبهم الشريف (٦٨) .

والدليل النقلي عليها : ـ

١ ـ قوله تعالى : ﴿ فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلًّا آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا ﴾ / الأنبياء ٧٩ .

٢ ـ وقوله : ﴿ وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ وَآتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَصْلَ الْخِطَابِ ﴾ / ص ٢٠ .

٣ ـ وقوله : ﴿ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ / النحل ١٢٥. أي : بالطريق التي هي أرفق بهم، والجدال لا يكون إلا من فطن ذكي (٦٩) .

---

(٦٥) الدردير على الخريدة ص ١٠٨ والباجوري على الجوهرة ج٢ ص ٢٥ ولوامع الأنوار ج٢ ص ٢٦٧ .

(٦٦) الدردير والباجوري السابقان، ورسالة في التوحيد للطائي ص ٧٠.

(٦٧) شرح المقاصد ج٢ ص ١٩٨ والمسامرة ص ٢٢٦ .

(٦٨) الدردير ورسالة في التوحيد السابقان.

(٦٩) الباجوري ج٢ ص ٢٥ ورسالة في التوحيد السابقان.

الصفة الرابعة

الذكورة

اتفق العلماء على أن الذكورة شرط في النبي، فلا يجوز أن تكون المرأة نبية، بل إن بعضهم (٧٠) نقل الإجماع على هذا القول. ومن أدلة هذا الشرط ما يأتي : ـ

أ ـ قوله تعالى : ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ إِلَّا رِجَالٗا نُّوحِيٓ إِلَيۡهِم ﴾ / يوسف ١٠٩ .

ب ـ وقوله تعالى : ﴿ وَلَوۡ جَعَلۡنَٰهُ مَلَكٗا لَّجَعَلۡنَٰهُ رَجُلٗا ﴾ / الأنعام ٩ .

جـ ـ النبوة والرسالة تقتضي : الاشتهار بالدعوة، و التردد إلى مجامع الناس، وإظهار المعجزة، ولزوم الاقتداء. والأنوثة توجب الستر، فبينهما تَنافٍ.

د ـ لأن النساء لا يصلحن للإمارة والسلطنة والقضاء وإقامة الصلاة بالإجماع.

أما الأشعري والقُرطبي وبعض أهل الظاهر فلم يشترطوا الذكورة في النبي، وقالوا بنبوة مريم، مستدلين : ـ

باصطفاء الله تعالى لها بقوله : ﴿وَإِذۡ قَالَتِ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرۡيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰكِ﴾ / آل عمران ٤٢ .

وبإرسال الروح إليها بقوله : ﴿ فَأَرۡسَلۡنَآ إِلَيۡهَا رُوحَنَا ﴾ / مريم ١٧ .

وقالوا بنبوة أم موسى مستدلين :

بوحي الله تعالى إليها ، بقوله سبحانه ﴿ وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنۡ أَرۡضِعِيهِ ﴾ / القصص ٧ .

ورد الجمهور على هذا الزعم قائلين : ـ

إن اصطفاء مريم وإرسال جبريل إليها لم يكن وحياً بشرع، إذ لا دلالة عليه

---

(٧٠) نقل الإجماع على عدم نبوة النساء الكرماني في شرح البخاري / حاشية المرجاني ج١ ص٩. وحكى الإجماع على عدم نبوة مريم البيضاوي وغيره / المسامرة ص٢٣١ وتفسير البيضاوي ص ٦٨ .

في الآيات المذكورة ، والوحي إلى أم موسى لا يراد به إلا معنى الإلهام ، كقوله تعالى: ﴿ وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ ... ﴾ / النحل ٦٨ (٧١) .

الصفة الخامسة

السلامة من النقائص

وأعني بهذا الشرط الأمور الآتية : ـ

أ ـ أن يكون سالماً من نقص الخلقة :

فشرطه أن يكون أكمل أهل زمانه خَلْقاً حال الإرسال (أي حال بعثه إلى الناس) .

وقد يعترض بعقدة لسان موسى عليه السلام، فيجاب :

بأن عقدة لسان موسى عليه السلام كانت قبل الإرسال، وأزيلت بدعوته عند الإرسال، بدليل :

دعاء موسى عليه السلام حين أوحى الله تعالى إليه ، وأمره بالدعوة قال : ﴿ وَٱحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِى ﴿٢٧﴾ يَفْقَهُوا۟ قَوْلِى ﴾ / طه ٢٧ ـ ٢٨ ، فأجابه تعالى : ﴿ قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَٰمُوسَىٰ ﴾ / طه ٣٦ (٧٢) .

ب ـ أن يكون سالماً من :

العيوب المنفرة للطباع من الأمراض والأسقام كالبرص والجذام. وقد يعترض ببلاء أيوب عليه السلام الذي أصيب بداء جلدي نفّر الناس منه فيجاب :

بأن بلاءه كان قبل نبوته عليه السلام ، وقد زال بعدها ، قال سبحانه : ﴿ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَكَشَفْنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرٍّ ﴾ / الأنبياء ٨٤ .

---

(٧١) المسامَرة وابن قُطلوبُغا على المسايَرة ص ٢٣٠ ـ ٢٣١ والمَرجاني السابق ولوامع الأنوار ج٢ ص٢٦٦.

(٧٢) المسايرة والمسامرة ص ٢٢٦.

جـ ـ أن يكون سالماً من دناءة الصناعة كالحجامة .

ومن قلة المروءة كالأكل على الطريق (٧٣) .

وهذا مبني على تقدير : أن العُرف كان يستنكر ذلك (٧٤) .

د ـ أن يكون سالماً من الفظاظة والغلظة (٧٥) .

لأن قسوة القلب موجبة للبعد عن الله تعالى، إذ إنها منبع المعاصي، لأن القلب هو المُضْغَة التي إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله، كما نطق به الحديث الصحيح. وفي الحديث الذي حسنه التِّرمِذي ورواه البَيهَقي : **(إن أبعد الناس من الله القلبُ القاسي)** (٧٦) .

ولأن الغلظة والشدة وعدم اللين مع الناس، يوجب النفرة من النبي، لذلك يقول الله تعالى: ﴿ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ﴾/ آل عمران ١٥٩ .

هذه الصفات التي مرت بنا الواجبة للأنبياء، تعني اتصافهم بكل كمال إنساني، وتنفي عنهم كل نقص بشري.

لأن النبوة أشرف مناصب الخلق، ومقتضية لغاية الإجلال اللائق بها.

لذا : ـ

فإن من المستحيل اتصافهم بأضداد هذه الصفات المذكورة كالكذب والكفر وارتكاب الذنوب والكتمان والبلادة وعدم السلامة من العيوب وغيرها من الأمور التي تُخِلّ بالشخصية، وبالتالي تخل بحكمة بعثهم رسلاً مبشرين ومنذرين.

---

(٧٣) المسايرة والمسامرة السابق وشرح المقاصد ج٢ ص ١٩٨ ولوامع الأنوار ج٢ ص ٢٦٧ والوسيلة ص ٦٩٣.

(٧٤) المسايرة والمسامرة ص ٢٣٢.

(٧٥) شرح المقاصد ج٢ ص ١٩٨ ولوامع الأنوار ج٢ ص ٢٦٧.

(٧٦) المسامَرة ص ٢٢٦. والحديث في سنن الترمذي ـ كتاب الزهد ـ باب أبعد الناس من الله القلب القاسي ج٧ ص ١٣٠.

٢
الوحي

أطلقت كلمة الوحي في أصل اللغة على معان متعددة أشهرها : ـ

١ ـ الإشارة : ومنه قوله تعالى: ﴿ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا۟ بُكْرَةً وَعَشِيًّا ﴾ / مريم ١١ أي : أشار إليهم.

٢ ـ والرسالة : قال ابن الأعرابي : أوحى الرجل، إذا بعث برسول ثقة إلى عبد من عبيده ثقة.

٣ ـ والإلهام : قال الزجّاج في قوله تعالى ﴿ وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى ٱلْحَوَارِيِّـۧنَ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِى وَبِرَسُولِى ﴾ / المائدة ١١١ : ـ

قال بعضهم : ألهمتهم كما قال عز وجل : ﴿ وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ ﴾ / النحل ٦٨ ، ومنه قوله تعالى : ﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ ﴾ / القصص ٧ ، ومنه قوله تعالى : ﴿ إِذْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰٓ ﴾ / طه ٣٨ .

٤ ـ والكلام الخفي : قال الكِسَائي : أوحيت إليه بالكلام أحي به، وأوحيته إليه، وهو أن تكلمه بكلام تخفيه من غيره. وقال ابن الأنباري في قولهم : أنا مؤمن بوحي الله، قال : سمي وحياً لأن الملك أسره على الخلق، وخص به النبي صلى الله عليه وسلم المبعوث إليه، قال عز وجل : ﴿ يُوحِى بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا ﴾ / الأنعام ١١٢ معناه : يسر بعضهم إلى بعض، فهذا أصل الحرف، ثم قصر الوحي للإلهام.

ومنه قوله تعالى : ﴿ وَإِنَّ ٱلشَّيَـٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَـٰدِلُوكُمْ ﴾ / الأنعام ١٢١ أي : يوسوسون فيلقون في قلوبهم الجدال بالباطل.

٥ ـ والأمر : كقوله عز وجل ﴿ أَوْحَيْتُ إِلَى ٱلْحَوَارِيِّـۧنَ ﴾ / المائدة ١١١ ،

كما ذهب إلى ذلك بعض المفسرين ، وكقوله ﴿ بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا ﴾ / الزلزلة ٥ .

٦ ـ والكتابة والمكتوب والكتاب.

قال أبو إسحاق : أصل الوحي في اللغة كلها إعلام في خفاء . ولذلك صار الالهام يسمى وحياً ، قال الأزهري : وكذلك الإشارة والإيماء يسمى وحياً ، والكتابة تسمى وحياً. . . وكل هذا إعلام، وإن اختلفت أسباب الاعلام فيها (١) .

والوحي بالمعنى الاصطلاحي : ـ هو أن يُعْلِم الله تعالى من اصطفاه من عباده كل ما أراد اطلاعه عليه من ألوان الهداية والعلم، ولكن بطريقة سرية خفية غير معتادة للبشر (٢) .

أخرج ابن أبي حاتم من طريق عقيل عن الزُهْري : سئل عن الوحي فقال : الوحي ما يوحي الله إلى نبي من الأنبياء، فيثبته في قلبه، فيتكلم به ويكتبه، وهو كلام الله. ومنه ما لا يتكلم به، ولا يكتبه لأحد، ولا يأمر بكتابته، ولكنه يحدث به الناس حديثاً، ويبين لهم أن الله أمره أن يبينه للناس، ويبلغهم إياه (٣) .

أنواع الوحي

جمع أنواع الوحي قوله عز وجل :

﴿ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ ﴾ / الشورى ٥١ .

---

(١) لسان العرب مادة (وحي) والقاموس المحيط مادة (وحي). وانظر تفسير الرازي والقُرطبي والبَيْضاوي في مواضع الآيات المذكورة ومفردات الراغب مادة (وحي) وذكر القاضي عِياض في الشفاء ج١ ص ٢٥٢ قولين في أصل الوحي : أولهما الإسراع ومنه تلقي النبي لأنه على عجل،ومنه الإلهام، ومنه الخط لسرعة حركة اليد . . . وثانيهما السر والاخفاء ومنه الإلهام ، وإيحاء الشياطين أي وسوستهم.

(٢) مناهل العرفان ج١ ص ٥٦.

(٣) الإتقان ج١ ص ٤٤.

تفيد هذه الآية الكريمة أنه : ما صح لأحد من البشر أن يكلمه الله إلا على أحد ثلاثة (٤) أوجه : ـ

الوجه الأول : وحياً.

أي : إما عن الوحي وهو :

أ ـ الإلهام والقذف في القلب : كما أوحى الله تعالى إلى أم موسى أن ارضعيه، ومنه قوله صلى الله عليه وسلم : **(إن رُوح القُدُس نفَث في روْعي (٥) : أن نفساً لن تموت حتى تستكمل أجَلَها وتستوعب رزقها ...)** .

ب ـ الرؤيا في المنام : كما أوحى الله إلى ابراهيم بذبح ولده إسماعيل، ومنه مبدأ وحي النبي محمد صلى الله عليه وسلم الرؤيا الصالحة في النوم، وكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح، كما جاء في حديث الصحيح الذي رواه البخاري ومسلم في باب كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم.

الوجه الثاني : أو من وراء حجاب.

أي وإما على أن يسمعه من غير واسطة مبلغ.

كما أسمع الله تعالى موسى كلامه من غير واسطة.

وكذا الملائكة الذين كلمهم الله تعالى في خلق آدم عليه السلام.

---

(٤) قال الإمام الرازي في تفسير هذه الآية ج٢٧ ص ١٨٧ : (واعلم أن كل واحد من هذه الأقسام الثلاثة وحي، إلا أنه تعالى خصص القسم الأول باسم الوحي لأن ما يقع في القلب على سبيل الإلهام، فهو يقع دفعة، فكان تخصيص لفظ الوحي به أولى. فهذا هو الكلام في تمييز هذه الأقسام بعضها عن بعض) .

(٥) الروع (بضم الراء) العقل والقلب. والحديث رواه أبو نُعَيْم في الحِلْية عن أبي أُمَامَة. وهو ضعيف / الجامع الصغير ج١ ص ٩٠.

الوجه الثالث : أو يرسل رسولاً.

أي وإما على أن يرسل إليه رسولاً من الملائكة، فيبلغ ذلك الملك ذلك الوحي إلى الرسول البشري. ورسول الملائكة هو جبريل عليه السلام (٦) .

ولنزول جبريل عليه السلام على الرسول محمد صلى الله عليه وسلم أساليب مختلفة هي : ـ

أ ـ أن يأتي إلى النبي صلى الله عليه وسلم على صورته الحقيقية الملكية.

ب ـ أن يأتي إلى النبي على صورة رجل فيكلمه، كما في صحيح البُخاري (٧) **(وأحياناً يتمثَّل لي المَلَكُ رجلاً فيكلِّمني، فأعي ما يقول)** . وزاد أبو عَوَانة في صحيحه : (وهو أهونه علي) .

فيراه الحاضرون ويستمعون إليه ، كما في الحديث الصحيح الذي رواه مسلم (٨) ، عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه (قال : بينما نحن عند رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم، إذ طلع علينا رجل شديد بياض الثياب، شديد سواد الشَّعر، لا يُرى عليه أثر السفر، ولا يعرفه منا أحد، حتى جلس إلى النبي صلى الله عليه وسلم، فأسند ركبتيه إلى ركبتيه، ووضع كفيه على فخذيه وقال :

يا محمد أخبرني عن الإسلام . . . إلخ) .

وكان قد سأل النبي صلى الله عليه وسلم عن الإسلام والإيمان وأمارات الساعة، ورسول الله صلى الله عليه وسلم يجيبه، حتى إذا انتهى من أسئلته وذهب، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : **(فإنه جبريل عليه السلام، أتاكم يعلمكم دينكم)** .

---

(٦) انظر تفسير الرازي ج ٢٧ ص ١٨٦ وتفسير القرطبي ج٨ ص ٥٨٧٣ وروح المعاني للألوسي ج ٢٥ ص٥٤ وزاد المعاد ج١ ص ١٨ والإتقان ج١ ص ٤٤ .

(٧)صحيح البُخاري ـ كتاب بدء الوحي ج١ ص٢ .

(٨) صحيح مسلم ـ أول كتاب الإيمان ج١ ص ٣٦ .

جـ ـ أن يأتي إلى النبي صلى الله عليه وسلم خفية دون أن يراه أحد، فيظهر عليه أثر التغير والانفعال.

والرسول صلى الله عليه وسلم يصف حالته عند الوحي فيقول :

كما في صحيح البُخاري : **(أحياناً ياتيني مثل صلصلة الجرَس، وهو أشَدُّه علي، فيَفصِم عني، وقد وعَيتُ عنه ما قال)** .

قال الخَطَّابي :

والمراد أنه صوت متدارك يسمعه، ولا يتثبته أول ما يقرع سمعه، حتى يفهمه من بعد ذلك.

والحكمة في تقدمه : أن يفرغ سمعه للوحي، فلا يبقى فيه مكان لغيره.

وفي الصحيح كما تقدم آنفاً ان هذه الحالة أشد حالات الوحي عليه.

قيل : إنه إنما كان ينزل هكذا، إذا نزلت آية وعيد أو تهديد (٩) .

وسيأتي كلام آخر عن أحوال النبي صلى الله عليه وسلم عند الوحي، وذلك عند الكلام عن الوحي (الوحي أمر خارج عن النفس) بعد قليل .

كيفية الوحي ونزوله على النبي

العلم بكيفية الوحي سر من الأسرار التي لا يدرك كيفيتها العقل، وسماع الملك من الله تعالى ليس بحرف أو صوت، بل يخلق الله تعالى للسامع علماً ضرورياً. فكما أن كلامه تعالى ليس من جنس كلام البشر، فسماعه الذي يخلقه لعبده ليس من جنس سماع الأصوات (١٠) .

ولنزول الوحي على النبي طريقان :

---

(٩) الإتقان وزاد المعاد السابقان، وإرشاد الساري شرح البُخاري ج١ ص ٥٨ والنَّوَوِي على صحيح مسلم بهامش إرشاد الساري ج٩ ص ١٨٣ .

(١٠) إرشاد الساري ج١ ص ٥٩ .

أحدهما : أن النبي صلى الله عليه وسلم انخلع من صورة البشرية إلى صورة الملكية، وأخذه من جبريل.

وثانيهما : أن الملك انخلع إلى البشرية حتى يأخذه الرسول منه (١١).

وفي الحالتين صعوبة وشدة على الجِبلّة البشرية، لذلك كان يحدث في تلك الحالة غيبة وغطِيط (١٢).

وصورة اندماج النبي بالملك يمكن أن يتصورها الذهن، حين يتصور التنويم المغناطيسي، الذي كشفه الدكتور مسمر الألماني في القرن الثامن عشر، وأقام عليه البراهين، حتى اعترف به العلماء علمياً، بعد أن اختبروا الآلاف من الخلق، وله في الغرب أنصار كثيرون، وله دور وكتب ومستشفيات يؤمها الناس للتداوي به.

وفيه يسيطر الأستاذ المنوم على الوسيط بإيحاءاته، فيغط الوسيط بنومه، فيسأله عما يريد، فيجد الجواب حاضراً، وقد يأمره أو ينهاه، فينفذ الوسيط ذلك ولو بعد صحوه. ولا بد أن يكون بين نفسين مختلفي الطبائع أحدهما أقوى ارادة من الأخرى، فلا يستطيع امرؤ أن يقوم بهذه التجربة على نفسه.

فالتنويم المغناطيسي يقرب أمر الوحي، فاتصال الملك بالرسول يؤثر به لاستعداد خاص فيهما، ففي الملك قوة الإلقاء والتأثير لأنه روحاني محض، والثاني فيه قابلية التلقي عن هذا الملك، لصفاء روحانيته وطهارة نفسه المناسبة لطهارة الملك، وعند تسلط الملك ينسلخ الرسول عن حالته العادية، فيظهر التغير عليه، فيتلقى من الملك، وينطبع في قلبه ما تلقاه، حتى إذا انجلى عن الوحي، وجد ما تلقاه منقوشاً على قلبه، لا ينساه (١٣).

---

(١١) الإتقان ج١ ص٤٣ والوحي المحمدي ص ٨٣ وفيه قول ابن خَلدون. وإرشاد الساري ج١ ص ٥٩.

(١٢) إرشاد الساري ج١ ص ٦٠.
الجِبلّة : الخِلقة.

(١٣) مناهل العرفان ج١ ص ٥٩ ـ ٦٠ وفيه أمثلة عن تجارب التنويم المغناطيسي، والنبأ العظيم ص ٧٥ ـ ٧٦.

ثم إننا لم نجد ما يدفع هذا الاتصال بين الملك والنبي، بدليل :

أن العلم الحديث يسرّ لنا الأجهزة العلمية، التي أدركنا بها ما كان مجهولاً من قبل. فمن هذه الأجهزة ما سجل تصادم الأشعة الكونية في الفضاء، ومنها ما يدلنا على صوت ذباب طائر على بعد بضعة أميال، وكأنه يطير عند أذنك، وهذه الآلات الحديثة تستطيع إدراك ما لا يمكننا سماعه بالطرق السمعية التقليدية.

وهذه الطاقة غير العادية للسماع لا تخص الآلات العلمية الحديثة وإنما وهبها الله تعالى لبعض الحيوانات.

فالكلب يستطيع أن يشم ريح الحيوان الذي مر من الطريق، وقد استغلت هذه الحاسة لكشف المجرمين، فالقفل الذي كسره اللص يشمه الكلب المدرب، ثم يقتفي أثره، فيميزه من بين الآلاف.

وحشرة (العُثَّة) مجنِّحة ، لو وضعتها على نافذة فستحدث صوتاً يسمعه زوجها على مسافة بعيدةجداً، ويجيبها الزوج بطريقته الخاصة.

والجُنْدُب يحك رجليه وجناحيه، ويصوت بطريقة غير عادية، ويسمع على بعد نصف ميل.

ولأبي النطيط قدرة خارقة، فهو يسمع ويحس بالحركة التي تحدث في نصف قطر من ذرة الهيدروجين . . .

وهناك أمثلة أخرى كثيرة تدل على أن هناك وسائل غير مرئية لدى ذوي الحواس الخاصة، وإذا كان الأمر كذلك فلا غرابة في إدعاء النبي أنه يسمع صوتاً من ربه لا يدركه عامة الناس، ما دام من الممكن أن توجد في هذا العالم حركات وأصوات لا يسمعها الانسان، ولكن تسجلها الآلات، وما دامت هناك رسائل تدركها حيوانات دون أخرى (١٤) .

---

(١٤) الإسلام يتحدى ص ٩٦ ـ ٩٧.

المعجزة

المُعْجِزة لغة : مأخوذة من العجز ضد القُدرة (٣٩)

واصطلاحاً : هي عبارة عما قصد به إظهار صدق من ادعَى أنه رسول الله (٤٠) .

وقد اشترط المحققون فيها الشروط الآتية (٤١) :

١ ـ أن تكون أمراً من الله تعالى، ليصدِّق مدعي النبوة.

والأمر يشمل :

أ ـ القول : كالقرآن الكريم.

ب ـ والفعل : كنبع الماء من بين أصابع الرسول صلى الله عليه وسلم.

جـ ـ والترك : كعدم إحراق النار لإبراهيم الخليل عليه السلام.

٢ ـ أن تكون خارقة للعادة، التي اعتاد عليها الناس، واستمروا عليها مرة بعد أُخرى.

وهذا الشرط يفيد أن غير الخارق لا يكون مِعجزة، كما إذا قال آية صدقي طلوع الشمس من حيث تطلع، وغروبها من حيث تغرب.

---

(٣٩) شرح المقاصد ج٢ ص ١٧٥.

(٤٠) المواقف وشرحه ص ٥٤٧. وهناك تعريفات أخرى أريد بها حصر شروط المعجزة.

(٤١) انظر هذه الشروط في : الباجوري على الجوهرة ج٢ ص ٣٥ ـ ٣٦ والعلامة عصام على العقائد النسفية ص ١٣٣ ـ ١٣٤ والمواقف وشرحه ص ٥٤٧ ـ ٥٤٨ والمقاصد وشرحه ج٢ ص ١٧٥ ـ ١٧٧ والدَّواني ج٢ ص ٢٧٦ وحاشية الخلخالي عليه. والمسامَرة ص ٢٤٠ ـ ٢٤٢ ورسالة في التوحيد ص ٧٣ ـ ٧٤ وحجة الله على العالمين في معجزات سيد المرسلين ص ٨ وما بعدها، واليواقيت والجواهر للشَّعْرَاني ج١ ص ١٥٦ ـ ١٦١.

٣ ـ أن تكون على يد مدعي النبوة أو الرسالة.

أي أن صاحبها يقوم بدعوة إلى دين، فيه سعادة الناس في الدنيا والآخرة. وعندئذ لا تدخل في المعجزة الأمور الآتية :

أ ـ الاهانة : وهي ما يظهر على يد فاسق أو كافر، كما وقع لمُسَيلِمَة الكذّاب حين بصق في عين أعور لتبرأ، فعميت الصحيحة.

ب ـ الاستدراج : وهي ما يظهر على يد فاسق أو كافر، خديعة أو مكراً به، أي : استدراجاً لهم، وزيادة في غيهم، حتى يأتيهم أمر الله وهم غافلون، كما قال تعالى ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴿٤٤﴾ فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ / الأنعام ٤٤ ـ ٤٥.

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : **(إذا رأيت الله يعطي العبد في الدنيا وهو مقيم على معاصيه ما يحب، فإنما هو استدراج)**. ثم تلا رسول الله صلى الله عليه وسلم ﴿ **فلما نَسوا ما ذُكِّروا به** ﴾ .. الآية ، والآية التي بعدها (٤٢).

جـ ـ المعونة : وهي ما يظهر على يد العوام تخليصاً لهم من شدة.

د ـ الكرامة (٤٣) : وهي ما يظهر على يد صالح تقي.

---

(٤٢) أخرجه أحمد وابن جَرير وابن أبي حاتم وابن المنذر والطَّبَراني في الكبير وأبو الشيخ وابن مَرْدَوَيه والبيهقي في الشّعَب عن عُقْبة بن عامر عن النبي صلى الله عليه وسلم. / الدر المنثور ج٣ ص ١٢.

وهو في الجامع الصغير ج١ ص ٦ وهو حديث حسَن، ولم يذكر الآية.

(٤٣) الكرامة : هي أمر خارق للعادة تظهر على يد الوليّ، غير مقترنة بدعوى النبوة.

والولي : هو العارف بالله تعالى وصفاته بحسب ما يمكن المواظب على الطاعات، المجتنب =

٤ ـ أن لا تكون متقدمة على دعوى النبوة، بل مقارنة لها أو متأخرة عنها بزمن يسير يعتاد مثله.

لأن المعجزة شهادة من الله تعالى على صدق المدعي، والشهادة لا تتقدم على الدعوى.

فخرج بذلك : الإرهاص (مشتق من أرهصت الحائط أي أسسته) : وهو ما كان قبل النبوة من الخوارق تأسيساً لها، كإظلال الغمام له صلى الله عليه وسلم قبل بعثته، وشق صدره، وككلام عيسى عليه السلام في المهد.

والأنبياء قبل نبوتهم لا يقصرون عن درجة الولاية.

٥ ـ أن تكون موافقة لدعوى النبوة.

فخرج بذلك المخالف لها، كما اذا قال : آية صدقي انفلاق البحر، فانفلق الجبل.

٦ ـ أن لا تكون مكذبة له.

فخرج بذلك ما إذا كانت مكذبة له، كما إذا قال : آية صدقي نطقُ هذا الجماد، فنطق بأنه مفتَرٍ كذاب.

٧ ـ أن تتعذر معارضته.

وخرج بذلك :

السحر : وهو قواعد تكتسب بالتعليم يقتدر بها على أفعال غريبة.

والكهانة : وهي التنبؤ بالمغيبات لا عن دليل.

والشعبذة : (أو الشعوذة) : وهي خفة في اليد يرى أن لها حقيقة ولا حقيقة لها، كما يقع للحواة (جمع حاوي).

٨ ـ أن لا تكون في زمان نقض العادة كزمن طلوع الشمس من مغربها، لأن ما يظهر عند ظهور أشراط الساعة وانتهاء التكاليف لا يشهد بصدق الدعوى لكونه زمان نقض العادات.

المبحث الرابع

النبوة الخاصة

المطلب الأول

إثبات نبوة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم

تقدم أن إثبات النبوة لا يكون إلا باجتماع أمرين :

أولهما : ادعاء النبوة.

وثانيهما : إظهار المعجزة.

فكل من ادعى النبوة وأظهر المعجزة فهو نبي.

وهذان الأمران يثبتان نبوة محمد صلى الله عليه وسلم، وهما يشكلان المبدأ الأول في إثباتها، وهناك أمور أخرى تعد شواهد مؤكدة ومقررة لنبوته صلى الله عليه وسلم.

وإليك توضيح الأمرين المثبتين لنبوة الرسول الأعظم محمد صلى الله عليه وسلم وهما :

الأول : إدعاء النبوة

تواتر عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه ادعى النبوة بلا خلاف من أحد تواتراً ألحقه بالعَيان والمشاهَدة.

الثاني : إظهار المعجزة

ثبت عن الرسول صلى الله عليه وسلم أنه أظهر المعجزة.

معجزات الرسول صلى الله عليه وسلم :

ومعجزاته نوعان : النوع الأول :

كمعجزات الرسل والأنبياء السابقين قصيرة الأمد، زالت بزوال أيامها، وبموت من شاهدها ـ والمتطلع إليها لا يجدها إلا في الأخبار، كمعجزات موسى عليه السلام من : قلب العصا حية، وفلقها البحر، ومعجزات عيسى عليه السلام كإبراء الأكمه والأبرص وإحياء الموتى . . . إلخ.

ومن هذه المعجزات ما ثبت بالقرآن الكريم، أو نقل إلينا بالخبر المتواتر مثل:

أ ـ انشقاق القمر الثابت بالقرآن الكريم : ﴿ ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ ۝١ وَإِن يَرَوْا۟ ءَايَةً يُعْرِضُوا۟ وَيَقُولُوا۟ سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ ﴾ / القمر ١ - ٢ .

والأحاديث في هذا زاخرة كثيرة من طرق عدة في صحيح البخاري ومسلم وغيرهما.

ب ـ نبع الماء من بين أصابعه صلى الله عليه وسلم حين التمس الناس مع الرسول صلى الله عليه وسلم الماء للوضوء فلم يجدوه، فدعا بإناء فيه ماء، فوضع الرسول صلى الله عليه وسلم يده في ذلك الإناء، فنبع الماء من تحت أصابعه، فتوضأ جميع الناس إلى آخرهم.

وهذه المعجزة تكررت عدة مرات، كما ثبت ذلك في البخاري ومسلم وغيرهما.

جـ ـ إبراء المريض بلمسه صلى الله عليه وسلم كما في البخاري ومسلم وأصحاب السنن في وقائع كثيرة .

د ـ إخباره بحوادث قبل وقوعها، وهو كثير جداً مثل :

١ ـ أخرج أبو داود عن ثوبان رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (**يوشك الأمم أن تداعى عليكم، كما تداعى الأكلة إلى قصعتها، فقال قائل : ومن قلة نحن يومئذ؟ قال : بل أنتم كثير، ولكنكم غثاء كغثاء السيل، ولينزعن الله من صدور عدوكم المهابة منكم، وليقذفن الله في قلوبكم الوهن، قال قائل يا رسول الله وما**

الوهن؟ قال : حب الدنيا وكراهية الموت) (١) .

والذي ينظر إلى وضع المسلمين منذ أن اضمحل سلطانهم في الأرض، يجد طمع العالم بالمسلمين والكيد لهم مع كثرتهم الكاثرة.

٢ ـ روى مسلم عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (صنفان من أمتي من أهل النار لم أرهما : قوم معهم سياط كأذناب البقر، يضربون بها الناس، ونساء كاسيات عاريات مميلات مائلات، رؤوسهن كأسنمة البخت المائلة، لا يدخلن الجنة، ولا يجدن ريحها، وإن ريحها ليوجد من مسيرة كذا وكذا) (٢) .

والناظر في أمة الإسلام بعد قرونها الأولى، يجد الصنف الأول من شيوع الظلم وإيذاء الناس، ويجد في عصرنا الحاضر الصورة الدقيقة للنساء في عريهن وفتنتهن . . التي رسمها الحديث.

٣ ـ قوله صلى الله عليه وسلم : (ليأتين على الناس زمان، لا يبقى منهم أحد إلا أكل الربا، فإن لم يأكله، أصابه من غباره) (٣) .

ومن المعلوم أن الحياة الاقتصادية الحاضرة تقوم على الربا بالمصارف وغيرها، وهذا إخبار عما نحن فيه.

٤ ـ روى البخاري ومسلم (٤) عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه

---

(١) أبو داود ـ كتاب الملاحم ـ باب تداعي الأُمم على الإسلام ج٤ ص ٤٨٣.

(٢) رواه مسلم في كتاب اللباس والزينة ـ باب النساء الكاسيات العاريات . . ج٣ ص ١٦٨٠ وكتاب الجنة وصفة نعيمها ـ باب النار يدخلها الجبارون ج٤ ص ٢١٩٢. والبخت : الإبل الخراسانية، واحده : جمل بختي، وناقة بختية.

(٣) أخرجه أبو داود وابن ماجه والحاكم في المستدرك . / الجامع الصغير ج٢ ص١٣٣ وهو صحيح.

(٤) متفق عليه. رواه البخاري في كتاب الفتن ـ باب خروج النار. ومسلم في كتاب الفتن وأشراط الساعة ـ باب لا تقوم الساعة حتى تخرج نار من أرض الحجاز / اللؤلؤ والمرجان ص ٨١٣.

معجزات الرسول صلى الله عليه وسلم :

ومعجزاته نوعان : النوع الأول :

كمعجزات الرسل والأنبياء السابقين قصيرة الأمد، زالت بزوال أيامها، وبموت من شاهدها - والمتطلع إليها لا يجدها إلا في الأخبار، كمعجزات موسى عليه السلام من : قلب العصا حية، وفلقها البحر، ومعجزات عيسى عليه السلام كإبراء الأكمه والأبرص وإحياء الموتى . . . إلخ.

ومن هذه المعجزات ما ثبت بالقرآن الكريم، أو نقل إلينا بالخبر المتواتر مثل:

أ - انشقاق القمر الثابت بالقرآن الكريم : ﴿ اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ ۝١ وَإِن يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ ﴾ / القمر ١ - ٢ .

والأحاديث في هذا زاخرة كثيرة من طرق عدة في صحيح البخاري ومسلم وغيرهما.

ب - نبع الماء من بين أصابعه صلى الله عليه وسلم حين التمس الناس مع الرسول صلى الله عليه وسلم الماء للوضوء فلم يجدوه، فدعا بإناء فيه ماء، فوضع الرسول صلى الله عليه وسلم يده في ذلك الإناء، فنبع الماء من تحت أصابعه، فتوضأ جميع الناس إلى آخرهم.

وهذه المعجزة تكررت عدة مرات، كما ثبت ذلك في البخاري ومسلم وغيرهما.

جـ - إبراء المريض بلمسه صلى الله عليه وسلم كما في البخاري ومسلم وأصحاب السنن في وقائع كثيرة .

د - إخباره بحوادث قبل وقوعها، وهو كثير جداً مثل :

١ - أخرج أبو داود عن ثوبان رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (**يوشك الأمم أن تداعى عليكم، كما تداعى الأكلة إلى قصعتها، فقال قائل : ومن قلة نحن يومئذ؟ قال : بل أنتم كثير، ولكنكم غثاء كغثاء السيل، ولينزعن الله من صدور عدوكم المهابة منكم، وليقذفن الله في قلوبكم الوهن، قال قائل يا رسول الله وما**

وسلم قال : (لا تقوم الساعة، حتى تخرج نار من أرض الحجاز، تضيء أعناق الإبل ببصرى) وبصرى مدينة بالشام.

فأنبأنا عن حدوث بركان عظيم، من المكان الذي عينه النبي صلى الله عليه وسلم، فقد حدث النَّووِي عن السَّمهُودي، وكانت في زمنه سنة ٦٥٤ هـ، وقد فصل القول فيها عن زلزالها ودويها ونارها، وقال أخيراً : (إنّ ضوءها استولى على ما بطن وما ظهر، حتى كأن الحرم والمدينة قد أشرقت بهما الشمس؛ وتأثر من لهيبها النيران، وصار نور الشمس على الأرض يعتريه صفرة، ولونها هي يعتريه حمرة، والقمر كأنه خسف) . وذكر هذه النار القاضي سنان والقاشاني والعماد بن كثير والمطري وغيرهم (٥) .

النوع الثاني :

نوع خالد خلود الدهر، ماثل كل حين، ألا وهو القرآن الكريم .

وهنا نتتبع بعض جوانبه الدالة على أنه معجزة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم وأنه من عند الله تعالى.

القرآن الكريم

القرآن في اللغة : مصدر قرأ. كالغفران مصدر غفر.

ومنه قوله تعالى : ﴿ لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴿١٦﴾ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴾ / القيامة ١٦ - ١٨ .

وفي الاصطلاح : هو كلام الله تعالى، المنزل على الرسول محمد صلى الله عليه وسلم، المكتوب في المصاحف، المنقول عنه نقلاً متواتراً بلا شبهة، المبدوء

(٥) كتب الصحاح كالبخاري ومسلم وغيرهما والشفا للقاضي عياض واعلام النبوة للماوردي ودلائل النبوة للبيهقي والرسول ـ سعيد حوى ج٢ ص ١٣٠ وهذه الأمثلة غيض من فيض.

بسورة الفاتحة والمختوم بسورة الناس، المتعبد بتلاوته (١) .

وهو الكتاب الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وهو التشريع الخالد لكل زمان ومكان.

والقرآن الكريم معجز، أعجز البشر عن أن يأتوا بسورة من مثله وهنا لا بد أن نقيم الدليل على إعجازه، لتسلم لنا نبوة محمد صلى الله عليه وسلم، ويسلم الإسلام كله بعد ذلك.

إعجاز القرآن

الإعجاز : إثبات العجز للغير.

يقال : أعجز القرآن البشر، أي : أثبت عجزهم عن أن يأتوا بمثله.

ولا يتحقق الإعجاز إلا بأمور ثلاثة :

١ ـ التحدي، وهو طلب المنازلة والمعارضة.

٢ ـ وجود المقتضي الذي يدفع المتحدَّى إلى المنازلة.

٣ ـ عدم وجود مانع من المباراة.

فالمصارع إذا ادعى البطولة، وأنكر عليه مصارع آخر، فتحداه الأول، فلم يستطع الثاني منازلته، كان الأول قد أثبت عجز الثاني، وذلك :

لوجود التحدي من الأول،

ولحرص الثاني على إبطال دعوى الأول،

ولانعدام المرض أو العذر المانع من المباراة.

---

(١) فتح الغفار لابن نُجيم ج١ ص ١٠ وجمع الجوامع بشرح البناني ج١ ص ٢٢٣ وعلم أُصول الفقه ـ عبدالوهاب خلاف ص٢٢.

وسلم قال : (لا تقوم الساعة، حتى تخرج نار من أرض الحجاز، تضيء أعناق الإبل ببصرى) وبصرى مدينة بالشام.

فأنبأنا عن حدوث بركان عظيم، من المكان الذي عينه النبي صلى الله عليه وسلم، فقد حدث النَّووِي عن السَّمهُودي، وكانت في زمنه سنة ٦٥٤ هـ، وقد فصل القول فيها عن زلزالها ودويها ونارها، وقال أخيراً : (إنّ ضوءها استولى على ما بطن وما ظهر، حتى كأن الحرم والمدينة قد أشرقت بهما الشمس؛ وتأثر من لهيبها النيران، وصار نور الشمس على الأرض يعتريه صفرة، ولونها هي يعتريه حمرة، والقمر كأنه خسف) . وذكر هذه النار القاضي سنان والقاشاني والعماد بن كثير والمطري وغيرهم (٥) .

النوع الثاني :

نوع خالد خلود الدهر، ماثل كل حين، ألا وهو القرآن الكريم .

وهنا نتتبع بعض جوانبه الدالة على أنه معجزة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم وأنه من عند الله تعالى.

القرآن الكريم

القرآن في اللغة : مصدر قرأ. كالغفران مصدر غفر.

ومنه قوله تعالى : ﴿ لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴿١٦﴾ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴾ / القيامة ١٦ - ١٨ .

وفي الاصطلاح : هو كلام الله تعالى، المنزل على الرسول محمد صلى الله عليه وسلم، المكتوب في المصاحف، المنقول عنه نقلاً متواتراً بلا شبهة، المبدوء

(٥) كتب الصحاح كالبخاري ومسلم وغيرهما والشفا للقاضي عياض واعلام النبوة للماوردي ودلائل النبوة للبيهقي والرسول ـ سعيد حوى ج٢ ص ١٣٠ وهذه الأمثلة غيض من فيض.

تحقق شروط الإعجاز في القرآن الكريم

لبيان صحة إعجاز القرآن الكريم، لا بد أن نعرض كل شرط من شروط الإعجاز المتقدمة على القرآن، ليتضح لنا إعجازه بجلاء، وذلك على النحو الآتي :

١ ـ التحدي، وهو طلب المنازلة والمعارضة.

فالقرآن الكريم تحدى العرب ، وأثبت عجزهم عن أن يأتوا بمثله ، ـ وهم أرباب الفصاحة والبيان شعراً ونثراً ـ قال تعالى :

﴿ أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُ بَل لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾ فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِ إِن كَانُوا صَادِقِينَ ﴾ / الطور ٣٣ - ٣٤ .

وتحداهم بأن يأتوا بعشر سور مثله، قال تعالى :

﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٣﴾ فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ وَأَن لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾ / هود ١٣ - ١٤ .

وتحداهم بأن يأتوا بسورة من مثله :

﴿ وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَن تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴾ / البقرة ٢٣ - ٢٤ .

فلما عجزوا تحدى الإنس والجن بلهجة واخزة وتهكم لاذع .

﴿ قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾ / الإسراء ٨٨ .

وهذا التحدي لم يقف عند زمن الرسول صلى الله عليه وسلم فحسب، بل هو ماض إلى يوم القيامة.

٢ ـ وجود المقتضي الذي يدفع المتحدَّى إلى المنازلة.

فالرسول صلى الله عليه وسلم ادعى أنه رسول الله، وجاءهم بكتاب الله

(القرآن الكريم) يسفه عباداتهم، ويسخر من عقولهم، فحرصوا على رده بأن يأتوا بمثله أو ببعضه، ليدحضوا حجته، فلا يقال إنه من اللّه.

٣ ـ عدم وجود مانع من المباراة.

فالمانع الذي يمنع العرب من المعارضة غير موجود، وذلك متضح في جوانب عدة هي :

أ ـ جانب اللغة : فالعرب كانوا قادة الفصاحة والبيان بشعرهم ونثرهم، وكان القرآن بلسانهم.

ب ـ جانب المعنى : فقد كانوا على بصر وخبرة وتجارب وذكاء، كما تشير إلى ذلك خطبهم وأشعارهم ومنافراتهم وآثارهم.

جـ ـ جانب الزمن : فالقرآن لم ينزل جملة واحدة، بل نزل خلال ثلاث وعشرين سنة، ليتسع مجال المعارضة (٢).

والعرب يعلمون أن معارضة القرآن بنظم سورة مثله أبلغ في تكذيب محمد صلى اللّه عليه وسلم وأسرع في تفريق أتباعه ، لكنهم عجزوا عن ذلك، مع أنهم مصاقع الخطباء، وأساطين البلاغة في تلك الفترة الطويلة، فسلكوا سبيلا آخر، وهو بذل النفوس، والمقارعة بالسيوف، والخروج من الأوطان، وإنفاق الأموال بالحرب الضارية (٣).

وتحدي القرآن الكريم ثابت قديماً وحديثاً ومستقبلاً للخصوم ذوي الأفكار الباطلة، الذين يطعنون به ويشككون فيه. إن هؤلاء يمثلون في موقفهم ذلك موقف المتخاذل المنهزم، الذي لا حول له ولا قوة، وما ذلك إلا اعتراف كامل بأن القرآن الكريم كتاب اللّه، الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، فما على

---

(٢) علم أُصول الفقه ـ عبد الوهاب خلاف ص ٢٥ ـ ٢٧ ومحاضرات في أُصول الفقه للشيخ بدر المتولي عبد الباسط ج١ ص ١٢٩.

(٣) الإتقان ج٢ ص ١١٧ وشرح المقاصد ج٢ ص ١٨٣ وشرح المواقف ص ٥٥٧ والدواني ج٢ ص ٢٧٨ والنبأ العظيم ص ٨٥ .

٦ ـ القرآن الكريم خالد خلود الدهر، فلا يطرأ عليه تغيير بزيادة أو نقصان، لأن الله تعالى قد تكفل بحفظه (٣٩) ، قال تعالى : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ / الحجر ٩ . ولا يخفى ما في هذه الآية الكريمة من المؤكدات اللغوية، الدالة على أن الله تعالى حفظه من التحريف والتبديل.

وقال سبحانه: ﴿ لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ ﴾/ فصلت ٤٢ .

إنني أتساءل هل بعد ذلك يفكر عاقل فيقول: إن محمداً صلى الله عليه وسلم جاء بهذا القرآن من فكره، أو عبقريته، أو باعتماده على بَحِيرا وورَقَة وغيرهما . . ؟

فلو أنصف العقل ما قرر إلا الحقيقة الكبرى وهي : أن القرآن الكريم معجز، وهو من لدن عزيز حكيم.

الشواهد الأخرى على نبوة الرسول الأعظم محمد صلى الله عليه وسلم

بعد الانتهاء من بيان الأساسين لنبوة محمد صلى الله عليه وسلم، وهما : ادعاؤه النبوة، وإظهاره المعجزة، وهما كافيان في إثباتها له، نعزز هذين الأساسين بوجوه مكملة ومقررة تشهد على نبوته عليه الصلاة والسلام وهي :

الشاهد الاول :

ما اجتمع فيه صلى الله عليه وسلم من الشمائل والأوصاف سواء كان ذلك قبل النبوة أو حالها أو بعدها، وهذا المسلك ارتضاه الجاحظ والغَزَالي (٤٠) ، وهذه

---

(٣٩) الشفا للقاضي عياض ج١ ص ٢٧٥ والإتقان ج٢ ص ١٢٣ نقلاً عن القاضي عياض.
وذهب بعض المعتزلة إلى أن القرآن معجز بالصرفة، وهي أن الله صرف همم المتحدّين عن معارضته مع قدرتهم عليها.
ورد جمهور العلماء على هذا بحجة : أن الإعجاز لو قصد بالصرفة لكان الأنسب ترك الاعتناء ببلاغته وعلو طبقته، ليكون عدم معارضته أبلغ في خرق العادة . . . انظر الكلام عن أدلة الإعجاز بالصرفة وردها في شرح المقاصد ج٢ ص ١٨٤ ـ ١٨٥.

(٤٠) شرح المواقف ص ٥٦٥.

أ ـ أوصافه الشريفة، ومحاسنه الرفيعة، وأخلاقه الحميدة :

كالصدق والأمانة : فلم يكذب ، ولم يغش ، ولم يخن ، حتى سمي بالصادق الأمين، فكانوا يأتمنونه على أموالهم، حتى قال النضر بن الحارث لقريش : (قد كان محمد فيكم غلاماً حَدَثاً ، أرضاكم فيكم ، وأصدقكم جديثاً ، وأعظمكم أمانة ، حتى إذا رأيتم في صُدْغيه الشيب ، وجاءكم بما جائكم ، قلتم إنه ساحر، لا والله ما هو بساحر) (٤١) .

والشفقة : فلم يؤذ أحداً بيده أو بلسانه. ولم يقتل أحدا بيده الشريفة ـ مع شجاعته العظيمة كما تقدم ـ إلا أُبَيّ بن خَلَف . فكان يتألم لما يراه من قومه من نهب وسلب وقتل، وكان يسعى للإصلاح بين المتخاصمين. وكان رحيماً رؤوفاً، يشاطر المصابين آلامهم وينصر اليتامى، ويطعم الجياع.

وفي صحيح (٤٢) البخاري حين طمأنته خديجة بعد رعبه من نزول جبريل عليه السلام، قالت له : (إنك لتصل الرَّحِمَ ، وتَحمل الكَلَّ ، وتكسِب المعدومَ ، وتَقري الضيف ، وتُعين على نوائب الحق) .

والسخاء : فكان مضيافاً كريماً لأبناء السبيل والفقراء.

والصبر على البلاء خاصة بعد النبوة.

والزهد والتواضع والشجاعة الفريدة.

والحياء حتى إنه لم يبد جسده عارياً لغيره، مع اعتياد الناس في جاهليتهم ذلك.

وحلو الكلام، لين العريكة، يحبه كل من لقيه أو جالسه. والنظافة والهندام الجميل.

---

(٤١) انظر قول النضر في تهذيب سيرة ابن هِشام ج١ ص ٦٩ والشفا ج١ ص ١٣٥ وإظهار الحق ج٢ ص ٢٥٧.

(٤٢) صحيح البخاري ج١ ص ٣ باب كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم.

٦ ـ القرآن الكريم خالد خلود الدهر، فلا يطرأ عليه تغيير بزيادة أو نقصان، لأن الله تعالى قد تكفل بحفظه (٣٩)، قال تعالى: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ / الحجر ٩. ولا يخفى ما في هذه الآية الكريمة من المؤكدات اللغوية، الدالة على أن الله تعالى حفظه من التحريف والتبديل.

وقال سبحانه: ﴿ لَّا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ ﴾ / فصلت ٤٢.

إنني أتساءل هل بعد ذلك يفكر عاقل فيقول: إن محمداً صلى الله عليه وسلم جاء بهذا القرآن من فكره، أو عبقريته، أو باعتماده على بَحِيرا وورَقَة وغيرهما . . ؟

فلو أنصف العقل ما قرر إلا الحقيقة الكبرى وهي: أن القرآن الكريم معجز، وهو من لدن عزيز حكيم.

الشواهد الأخرى على نبوة الرسول الأعظم محمد صلى الله عليه وسلم

بعد الانتهاء من بيان الأساسين لنبوة محمد صلى الله عليه وسلم، وهما: ادعاؤه النبوة، وإظهاره المعجزة، وهما كافيان في إثباتها له، نعزز هذين الأساسين بوجوه مكملة ومقررة تشهد على نبوته عليه الصلاة والسلام وهي:

الشاهد الاول:

ما اجتمع فيه صلى الله عليه وسلم من الشمائل والأوصاف سواء كان ذلك قبل النبوة أو حالها أو بعدها، وهذا المسلك ارتضاه الجاحظ والغَزَالي (٤٠)، وهذه هي:

---

(٣٩) الشفا للقاضي عياض ج١ ص ٢٧٥ والإتقان ج٢ ص ١٢٣ نقلاً عن القاضي عياض.
وذهب بعض المعتزلة إلى أن القرآن معجز بالصَّرفة، وهي أن الله صرف همم المتحدّين عن معارضته مع قدرتهم عليها.
وردّ جمهور العلماء على هذا بحجة: أن الإعجاز لو قصد بالصرفة لكان الأنسب ترك الاعتناء ببلاغته وعلو طبقته، ليكون عدم معارضته أبلغ في خرق العادة . . . انظر الكلام عن أدلة الإعجاز بالصرفة وردها في شرح المقاصد ج٢ ص ١٨٤ ـ ١٨٥.

(٤٠) شرح المواقف ص ٥٦٥.

ب ـ هذا مع صفاء نفسه : من الحقد والأنانية والشك والشرك. فكان يكره عبادة الأصنام والأوثان، مع أن بيئته نشأت على عبادتها، فلم يحلف بهما، يدل له ما روي في السيرة النبوية لابن هِشام في قصة بَحِيرا الراهب حين استحلفه باللات والعُزى لما رأى قومه يحلفون بهما، قال له صلى الله عليه وسلم : (**لا تسألني باللات والعزى، فوالله ما أبغضت شيئاً قط بغضهما**) .

جـ ـ وحسن بدنه : سواء في جمال المظهر بسلامته من الأمراض المنَفِّرة وقوته الجسمانية، فقد صارع رُكانةَ المصارع المشهور، وصرعه.

أو في المخبر، فكان ذكي الفؤاد ثاقب القريحة، يهابه كل من رآه عرفه أو لم يعرفه.

د ـ ورفعه نسبه : إذ إنه من أشرف بيوت قريش التي هي أشرف قبائل العرب قاطبة.

هـ ـ وشرف وطنه : إذ إنه من مكة المكرمة أطهر بقاع الأرض، لأن فيها بيت الله الحرام، وما يجتمع مثل هذا إلا في نبي (٤٣) .

لأن الله تعالى قدّر ما يحتاج إليه البشر بمجموعه من الكفاءات والمواهب المختلفة، فوزعها بين أفراده، فنرى بعضهم يفوق الآخرين بالقوة الجسدية. والبعض الآخر يتفوق بالفن، وآخر يتفوق بالفكر الثاقب في الرياضيات أو الهندسة أو الخطابة أو بالشعر، وبعضهم يخترع ما يبهر الناس، وامتاز البعض الآخر بأن اجتباهم الله واختارهم لتبليغ شرعه إلى الناس، وهم الرسل والأنبياء.

لهذا نرى أن بعض الناس جبل على موهبة معينة امتاز بها على غيره. فالأنبياء جُبلوا على خِلقة خاصة بهم، وصفات تميزوا بها عن غيرهم فأعمالهم وأفكارهم فذة لا عهد للناس بها، وقد جعل الله تعالى فيهم الاستعداد الكامل، لتحمل هذه المهمة الشاقة، وهي تبليغ الأحكام إلى البشر.

---

(٤٣) شرح المقاصد ج٢ ص ١٨٨ والدَّوَّاني ج٢ ص ٢٧٨ والمسايرة والمسامرة عليها ص ٢٤٥ ـ ٢٤٩ وانظر أخلاقه في سيرة ابن هِشام والشفا.

فلا عجب أن يجمع الله تعالى في هؤلاء الرسل والأنبياء من الصفات والسجايا ما يؤهلهم ، لأن يكونوا قادة العالم وهداة البشر إلى الصراط المستقيم (٤٤) .

وقد اجتمعت في رسول الله صلى الله عليه وسلم المحاسن الرائعة، والسجايا البديعة، قبل بعثته ـ كما تقدم ـ وبعد بعثته، حتى وصفه القرآن ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ / القلم ٤ . وسئلت عائشة رضي الله عنها عن أخلاقه فقالت : (كان خلقه القرآن، يرضى برضاه، ويسخط بسخطه) (٤٥) .

فكان الأسوة الحسنة في كل شيء قال تعالى : ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ﴾ /الأحزاب ٢١، فهو القدوة الحسنة الطيبة، التي يرى المسلم أن من التقى والصلاح وبلوغ الجنة عند الله تعالى، هو أن يقتفي أثرها في الحياة الدنيا.

وما اجتماع هذه الخصال فيه قبل البعثة وبعدها، إلا شهادة كاملة بأنه نبي حقا.

الشاهد الثاني :

ما اشتملت عليه شريعته من أمور تتعلق :

بالعقائد أو الأخلاق أو الأحكام العامة ، وغيرها من دقائق التشريع والحكمة (٤٦) ، وما فيها من الضبط والعدل والمرونة ، مما يجعلها صالحة لكل زمان ومكان، كما شهد بذلك الأعداء، (والفضل ما شهدت به الأعداء) .

مع كونه أُمياً لا يعرف القراءة والكتابة، إلى أن مات صلى الله عليه وسلم، ونشأ بين قوم ، غلبت فيهم الجهالة ، ولم يمارس الخط والتعلم والتأدب (٤٧) ، بل

---

(٤٤) مبادىء الإسلام للمَوْدودي ص٣٢ ـ ٣٤.

(٤٥) الشفا للقاضي عِيَاض ج١ ص ٩٦.

(٤٦) شرح المقاصد ج٢ ص ١٨٨ والدَّوَّاني ج٢ ص ٢٧٨.

(٤٧) الدواني السابق والمسامرة ص ٢٤٩.

كان قبل نبوته يقضي أياماً طوالاً في غار حِرَاء، وحيداً مختلياً بنفسه، متحنثاً ومتأملاً في جلال الله وعظمته.

وهنا نفصل محتويات القرآن الكريم، حتى يتأكد القاريء أن هذه الأمور الشاملة لكل جوانب الحياة، لن يأتي بها شخص عبقري أو غيره طفرة واحدة، وإن ملك زمام العلم والفكر، وتهيأت له أسباب التشريع، فما هي إلا من لدن عليم خبير، أوحى بها إلى الرسول الأمي، ليبلغها للناس.

محتويات القرآن الكريم :

تنقسم هذه المحتويات إلى نوعين : أحكام وغيرها .

النوع الأول : أحكام القرآن وهي ثلاثة أقسام :

١ ـ أحكام اعتقادية : أي في وجوب اعتقاد المكلف بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر.

٢ ـ أحكام خُلُقية : في وجوب التحلي بالفضائل والتخلي عن الرذائل.

٣ ـ أحكام عملية : وهي تنظم نوعين :

أ ـ أحكام العبادات، لتنظيم علاقة الإنسان بربه ، من صلاة وزكاة وحج وصوم ...، وآياتها نحو ١٤٠ آية.

ب ـ أحكام المعاملات وتتنوع إلى الأنواع الآتية :

١ ـ أحكام الأحوال الشخصية المتعلقة بالأسرة، من زواج وطلاق ، وآياتها نحو ٧٠ آية.

٢ ـ الأحكام المدنية المتعلقة بالبيع والإجارة والرهن والكفالة والشركة ... إلخ ، وآياتها نحو ٧٠ آية.

٣ ـ والأحكام الجنائية المتعلقة بالعقوبات والحدود، لحفظ حياة الناس وأموالهم وأعراضهم وحقوقهم، وآياتها نحو ٣٠ آية.

ويعد الكافرين بتقلص السلطان والجوع، والخوف، قال تعالى: ﴿ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴾ / النحل ١١٢ .

ثانيهما: الترغيب والترهيب بنعيم الآخرة وعذابها.

قال سبحانه:

﴿ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٣﴾ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُۥ يُدْخِلْهُ نَارًا خَٰلِدًا فِيهَا وَلَهُۥ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴾/النساء ١٣-١٤ (٤٩) .

الشاهد الثالث:

إن النبي صلى الله عليه وسلم مع فقره وقلة أنصاره وضعفهم، قد حارب الشرك وأهله وجبابرة العالم، فضلل آراءهم، وسفه أحلامهم، وهدم دولهم، وانتشر دينه في الآفاق، فانحسرت أمامه جميع الأديان واتسعت دولته بعده، فحررت وحكمت الشرق والغرب، فلم يستطع العدو على كثرتهم في العدد والعُدّة، وعلى تربصهم به وبأصحابه، وحرصهم على استئصاله ودعوته، أن ينالوا منه، أو يقدروا عليه.

وما هذا إلا إمداد من الله، له ولمن كان على دعوته (٥٠).

قال تعالى: ﴿ وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ / الروم ٤٧ .

---

(٤٩) الإسلام عقيدة وشريعة للشيخ شلتوت ص ٥٠٠ و ٥٠١.

(٥٠) شرح المقاصد ج٢ ص ١٨٨.

الشاهد الرابع :

ظهوره على فترة من الرسل وانتشار الضلالة. فالعرب على عبادة الأوثان، والفرس على تعظيم النار وعلى الاباحية، والترك على تخريب الأمصار وإيذاء الناس، والهنود على عبادة البقر وتأليه الحجر، واليهود على الحقد والأنانية والشرك، والنصارى بين التوحيد والإشراك بالله.

وهكذا الناس على الأرض، فلا بد من دافع لهذا الإلحاد، ورافع للواء الصلاح والتقى، ولا يكون هذا إلا ممن أمده الله تعالى بنور النبوة (٥١).

الشاهد الخامس :

البشارات الواردة في كتب الأنبياء السابقين.

ذلك لأن الكتب السماوية مصدرها واحد، وهو : الله تعالى، وهدفها واحد وهو : إصلاح الناس، ليعبدوا الله، والنبي صلى الله عليه وسلم جعل من أركان الإيمان : الإيمان بكتبه ورسله. وفي هذه الكتب السابقة بشارات تنبيء بظهور محمد صلى الله عليه وسلم، حتى ذكر القرآن الكريم أن عيسى عليه السلام، قد بشر برسول من بعده اسمه أحمد، قال تعالى : ﴿ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ ﴾ / الصف ٦ .

قال المحقق عبد الحكيم السيالكوتي في حاشيته على البَيْضاوي :

(يجب أن يتصور أن كل نبي أتى بلفظة معرضة، وإشارة مدرجة، لا يعرفها إلا الراسخون في العلم. وذلك لحكمة إلهية. وقد قال العلماء : ما انفك كتاب منزل من السماء من تضمن ذكر النبي صلى الله عليه وسلم لكن بإشارات، ولو كان متجلياً للعوام لما عوتب علماؤهم في كتمانه، ثم ازداد ذلك غموضاً بنقله من لسان إلى لسان من العبراني إلى السرياني، ومن السرياني إلى العربي) (٥٢).

---

(٥١) شرح المقاصد ج٢ ص ١٨٩ وشرح المواقف ص ٥٦٥.

(٥٢) إظهار الحق ج٢ ص ٢٢٠.

المطلب الثاني

رسالته (ﷺ) خاتمة الشرائع وأصول دعوته

ختم النبوة

آخر الأنبياء هو محمد صلى الله عليه وسلم. فهو خاتم الأنبياء والمرسلين بدليل :

أ - قوله تعالى : ﴿ مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ﴾ / الأحزاب ٤٠ .

ب - قوله صلى الله عليه وسلم في صحيح البخاري (١) ومسلم، واللفظ لمسلم :

(مثلي ومثل الأنبياء من قبلي، كمثل رجل بني بنياناً فأحسنه وأجمله، إلا موضع لبنة من زواية من زواياه، فجعل الناس يطوفون به، ويعجبون له، ويقولون : هلا وضعت هذه اللبنة؟ قال : فأنا اللبنة، وأنا خاتم النبيين) .

أما ما صح من الأحاديث التي تذكر أن المسيح عليه السلام ينزل قبيل قيام الساعة، فالثابت أنه لا ينزل بوحي جديد، وإنما ينزل فيحكم بشريعة محمد صلى الله عليه وسلم، فهو مقرر ومؤكد لها (٢) ، ولذا حين ينزل يكسر الصلبان ويقتل الخنزير ولا يقبل الجزية (٣) .

---

(١) البخاري - كتاب المناقب - باب خاتم النبيين ج٤ ص ٢٢٥. ومسلم كتاب الفضائل - باب ذكر كونه صلى الله عليه وسلم خاتم النبيين ج٤ ص ١٧٩١.

(٢) التفتازاني على العقائد النسفية ص ١٣٥ والباجوري على الجوهرة ج٢ ص ٣٧ ولوامع الأنوار ج٢ ص ٢٧٧.

(٣) لوامع الأنوار السابق.

ولذلك كانت شريعته صلى الله عليه وسلم خاتمة الشرائع السماوية وناسخة لها.

وهو مصداق قوله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ﴾ / آل عمران ١٩ .

وقوله سبحانه : ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾ / آل عمران ٨٥ .

وقوله تعالى : ﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ﴾ / المائدة ٣ .

أما إذا ذكر في القرآن أو في السنة المطهرة حكم شرعه الله لمن سبقنا من الأمم على ألسنة رسلهم، فهل هو شرع لنا أم لا ؟

هذا هو موضوع (شرع من قبلنا) في أُصول الفقه، وخلاصته :

أ ـ أن الأحكام المشرعة لمن قبلنا وكتبت علينا، فلا خلاف أنها شرع لنا، كقوله تعالى ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ ﴾ / البقرة ١٨٣ .

ب ـ أن الأحكام المشرعة لمن قبلنا التي رفعت عنا بحكم ناسخ في شرعنا ، فلا خلاف أنها ليست شرعا لنا ، مثل حكم شريعة موسى عليه السلام : (إن العاصي لا يكفر عن ذنبه إلا أن يقتل نفسه) هذا الحكم مرفوع عنا ، لأنه منسوخ بتشريع التوبة.

جـ ـ أما الحكم الذي لم يرد في شرعنا ما ينسخه أو يقرره، فقد اختلف فيه الفقهاء على قولين :

القول الأول : ـ

يكون شرعاً لنا، وعلينا تطبيقه، لعدم الدليل على نسخه، وهو من الأحكام التي جاء بها الرسل، وهو قول الحنفية وبعض المالكية

القول الثاني : ـ

لا يكون شرعاً لنا، لأن شريعتنا ناسخة للشرائع السماوية جميعاً، إلا إذا ورد في شرعنا ما يقرره.

والحق هو المذهب الأول : لأن شريعتنا إنما نسخت من الشرائع السابقة ما يخالفها فقط.

ولأن قص القرآن علينا حكماً شرعياً سابقاً بدون نص على نسخه، هو تشريع لنا ضمناً، لانه حكم إلهي بلغه الرسول إلينا .

ولأن القرآن مصدق لما بين يديه من التوراة والإنجيل، فما لم ينسخ حكماً في أحدهما فهو مقرر له (٤) .

وسبب ختم شريعة الإسلام الرسالات السابقة ما يأتي :

١ ـ شريعة الرسول صلى الله عليه وسلم بينة واضحة، ينظر إليها المتزود الطالب العلم في أي وقت وفي أي مكان، فينهل منها ما يسد حاجته.

٢ ـ لا حاجة إلى شريعة تضيف إلى الإسلام، أو تنقص منه، لأنه لا قصور فيه عن حل أية مشكلة تواجهه.

وأوضح دليل عليه هو أنها أعطت حكمها في كل المشاكل الكثيرة، التي لا حصر لها، والتي حدثت للمسلمين في جوانب الحياة كافة، من لدن عصر النبي صلى الله عليه وسلم إلى يومنا هذا.

بل الحاجة قائمة إلى من ينشر شريعتنا الإسلامية، ليتزود العالم بالعلاج الناجع الذي يستأصل شأفة أمراض الأمم جميعاً.

٣ ـ ونبوة محمد صلى الله عليه وسلم عامة إلى جميع أهل الأرض، فلم تختص بها أمة أوبلدة أو زمن (٥) .

---

(٤) أصول الفقه ـ عبد الوهاب خلاف ص ١٠٥ ـ ١٠٦.

(٥) مبادىء الإسلام للشيخ المودودي ص ٦٠.

عموم رسالته

ورسالته صلى الله عليه وسلم عامة إلى جميع الناس، على اختلاف ألوانهم وأجناسهم ولغاتهم، بدليل :

أ ـ قوله تعالى : ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ﴾ / الأنبياء ١٠٧ .

وقوله سبحانه : ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةٗ لِّلنَّاسِ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗا ﴾ / سبأ ٢٨ .

وقوله عز وجل ﴿ قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيۡكُمۡ جَمِيعًا ﴾ / الاعراف ١٥٨ .

ب ـ قتاله صلى الله عليه وسلم لأهل الكتاب، وضرب الجزية عليهم وفتوحات الخلفاء الراشدين، لنشر الإسلام محل الأديان الأخرى.

بينما كان الأنبياء السابقون مرسلين إلى أقوامهم خاصة. وهذا واضح في القرآن الكريم، قال تعالى :

﴿ لَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوۡمِهِۦ ﴾ / الأعراف ٥٩ .

﴿ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمۡ هُودٗا قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ ﴾ / الأعراف ٦٥ .

﴿ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمۡ صَٰلِحٗاۚ قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ ﴾ / الأعراف ٧٣ .

﴿ وَلُوطًا إِذۡ قَالَ لِقَوۡمِهِۦٓ ﴾ / الاعرف ٨٠ .

﴿ وَإِلَىٰ مَدۡيَنَ أَخَاهُمۡ شُعَيۡبٗا ﴾ / الاعراف ٨٥ .

﴿ ثُمَّ بَعَثۡنَا مِنۢ بَعۡدِهِم مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ وَمَلَإِيْهِۦ ﴾ / الأعراف ١٠٣ .

وقال تعالى في عيسى : ﴿ وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ﴾ / آل عمران ٤٩ .

وفي الحديث الصحيح : **(أعطيت خمساً لم يُعطَهن أحد من قبلي : كان كل نبي يبعث إلى قومه خاصة، وبعثت إلى كل أحمر وأسود...)** وسيأتي بعد قليل.

وبناء على ذلك :

فمن اتبع النبي محمداً صلى الله عليه وسلم فقد اتبع الأنبياء جميعاً، ومن أنكر

نبوته فقد أنكر نبوة الأنبياء جميعاً، وما ذلك الإنكار إلاّ مكابرة وعناد وهدر لقيمة العقل، لذلك يستحق صاحبه العقاب الشديد يوم القيامة.

محمد صلى الله عليه وسلم أرفع الأنبياء منزلة

الأنبياء جميعاً يشتركون في وصف النبوة، فهم على حد واحد فيها، لأن النبوة في نفسها لا تتفاضل، إلا أن محمداً صلى الله عليه وسلم خاتم الأنبياء والمرسلين أرفعهم منزلة، وأعلاهم مقاماً، فتفضيله صلى الله عليه وسلم على غيره من الأنبياء يعود إلى زيادة الأحوال والكرامات والرتب. ودليل تفضيله هو :

أ ـ قوله صلى الله عليه وسلم : **(أنا سيد ولد آدم يوم القيامة ولا فَخْرَ)** (٦) . أي لا أقول ذلك فخراً بنفسي، بل تحدثاً بنعمة ربي.

ب ـ أنه صلى الله عليه وسلم يفضل غيره بأمور، ذكرها في الحديث الصحيح الذي رواه الشيخان : ـ

(أُعطيت خمساً لم يعطهن أحد قبلي، كان كل نبي يبعث إلى قومه خاصة، وبعثت إلى كل أحمر وأسود، وأُحِلت لي الغنائم، ولم تحل لأحد قبلي، وجعلت لي الأرض طيبة طهوراً ومسجداً ، فأيما رجل أدركته الصلاة صلى حيث كان ، ونُصرت بالرعب بين يدي مسيرة شهر ، وأعطيت الشفاعة) (٧) .

جـ ـ أن أمته أفضل الأمم قال تعالى : ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ﴾/ آل عمران ١١٠، وذلك تابع لفضل نبيها محمد صلى الله عليه وسلم.

---

(٦) رواه أحمد في مسنده والتِّرمذي وابن ماجة عن أبي سعيد وهو حسن / الجامع الصغير ج١ ص ١٠٧.

(٧) صحيح البخاري ـ كتاب الصلاة ـ باب قول النبي صلى الله عليه وسلم : جعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً ج١ ص ١١٩ . وصحيح مسلم ـ واللفظ له ـ كتاب المساجد ومواضع الصلاة ج١ ص ٣٧٠.

عموم رسالته

ورسالته صلى الله عليه وسلم عامة إلى جميع الناس، على اختلاف ألوانهم وأجناسهم ولغاتهم، بدليل :

أ ـ قوله تعالى : ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ﴾ / الأنبياء ١٠٧ .

وقوله سبحانه : ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةٗ لِّلنَّاسِ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗا ﴾ / سبأ ٢٨ .

وقوله عز وجل ﴿ قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيۡكُمۡ جَمِيعًا ﴾ / الاعراف ١٥٨ .

ب ـ قتاله صلى الله عليه وسلم لأهل الكتاب، وضرب الجزية عليهم وفتوحات الخلفاء الراشدين، لنشر الإسلام محل الأديان الأخرى.

بينما كان الأنبياء السابقون مرسلين إلى أقوامهم خاصة. وهذا واضح في القرآن الكريم، قال تعالى :

﴿ لَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوۡمِهِۦ ﴾ / الأعراف ٥٩ .

﴿ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمۡ هُودٗا قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ ﴾ / الأعراف ٦٥ .

﴿ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمۡ صَٰلِحٗاۚ قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ ﴾ / الأعراف ٧٣ .

﴿ وَلُوطًا إِذۡ قَالَ لِقَوۡمِهِۦٓ ﴾ / الاعرف ٨٠ .

﴿ وَإِلَىٰ مَدۡيَنَ أَخَاهُمۡ شُعَيۡبٗا ﴾ / الاعراف ٨٥ .

﴿ ثُمَّ بَعَثۡنَا مِنۢ بَعۡدِهِم مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ وَمَلَإِيْهِۦ ﴾ / الأعراف ١٠٣ .

وقال تعالى في عيسى : ﴿ وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ﴾ / آل عمران ٤٩ .

وفي الحديث الصحيح : **(أعطيت خمساً لم يُعطَهن أحد من قبلي : كان كل نبي يبعث إلى قومه خاصة، وبعثت إلى كل أحمر وأسود...)** وسيأتي بعد قليل.

وبناء على ذلك :

فمن اتبع النبي محمداً صلى الله عليه وسلم فقد اتبع الأنبياء جميعاً، ومن أنكر

نبوته فقد أنكر نبوة الأنبياء جميعاً، وما ذلك الإنكار إلاّ مكابرة وعناد وهدر لقيمة العقل، لذلك يستحق صاحبه العقاب الشديد يوم القيامة.

محمد صلى الله عليه وسلم أرفع الأنبياء منزلة

الأنبياء جميعاً يشتركون في وصف النبوة، فهم على حد واحد فيها، لأن النبوة في نفسها لا تتفاضل، إلا أن محمداً صلى الله عليه وسلم خاتم الأنبياء والمرسلين أرفعهم منزلة، وأعلاهم مقاماً، فتفضيله صلى الله عليه وسلم على غيره من الأنبياء يعود إلى زيادة الأحوال والكرامات والرتب. ودليل تفضيله هو :

أ ـ قوله صلى الله عليه وسلم : **(أنا سيد ولد آدم يوم القيامة ولا فَخْرَ)** (٦) .
أي لا أقول ذلك فخراً بنفسي، بل تحدثاً بنعمة ربي.

ب ـ أنه صلى الله عليه وسلم يفضل غيره بأمور، ذكرها في الحديث الصحيح الذي رواه الشيخان : ـ

(أُعطيت خمساً لم يعطهن أحد قبلي، كان كل نبي يبعث إلى قومه خاصة، وبعثت إلى كل أحمر وأسود، وأُحِلت لي الغنائم، ولم تحل لأحد قبلي، وجعلت لي الأرض طيبة طهوراً ومسجداً ، فأيما رجل أدركته الصلاة صلى حيث كان ، ونُصرت بالرعب بين يدي مسيرة شهر ، وأعطيت الشفاعة) (٧) .

جـ ـ أن أمته أفضل الأمم قال تعالى : ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ﴾/ آل عمران ١١٠، وذلك تابع لفضل نبيها محمد صلى الله عليه وسلم.

---

(٦) رواه أحمد في مسنده والتِّرمذي وابن ماجة عن أبي سعيد وهو حسن / الجامع الصغير ج١ ص ١٠٧.

(٧) صحيح البخاري ـ كتاب الصلاة ـ باب قول النبي صلى الله عليه وسلم : جعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً ج١ ص ١١٩ . وصحيح مسلم ـ واللفظ له ـ كتاب المساجد ومواضع الصلاة ج١ ص ٣٧٠.

أي أن فضل أُمته لا يحصل إلا باتباع أوامره صلى اللّه عليه وسلم ، والانتهاء عن نواهيه والاهتداء بهديه صلى اللّه عليه وسلم.

فإذا قيل :

إن الرسول صلى اللّه عليه وسلم نهى عن التفضيل بأحاديث منها :

أ ـ قوله صلى اللّه عليه وسلم : (**لا تُخَيِّروا بين الأنبياء**) (٨) .

ب ـ وقوله صلى اللّه عليه وسلم : (**لا ينبغي لعبد أن يقول : أنا خير من يونس بن متى**) (٩) .

فالجواب :

أن هذه الأحاديث محمولة على أنه صلى اللّه عليه وسلم قالها على سبيل التواضع ونفي العجب، أو أن المقصود منها ألاّ يفضل بينهم تفضيلاً، يؤدي إلى تنقص بعضهم أو الغض منهم (١٠) .

شفاعة الرسول محمد صلى اللّه عليه وسلم

الشفاعة لغة : الوسيلة والطلب.

وعرفاً : سؤال الخير للغير.

وهي مشتقة من الشفع الذي هو ضد الوتر. فكأن الشافع ضم سؤاله إلى سؤال المشفوع له. والمشفّع ـ بكسر الفاء ـ : الذي يقبل الشفاعة، والمشفَّع ـ بفتح

---

(٨) رواه البخاري ـ في كتاب الخصومات ـ باب ما يذكر في الأشخاص والخصومة بين المسلم واليهود ج٣ ص ١٥٩.

(٩) أخرجه مسلم في كتاب الفضائل ، والبخاري في كتاب الأنبياء / متفق عليه ـ اللؤلؤ والمرجان ص ٦٢٧.

(١٠) تفسير الرازي في تفسير آية البقرة ٢٥٣ ﴿ **تلك الرسل فضلنا بعضهم على بعض** ﴾ ج٦ ص ١٩٤ وقد جاء بتسع عشرة حجة على هذا مع مناقشة المخالفين. وانظر الشفا ج١ ص ٢٢٥ ـ ٢٢٨ والتفتازاني في شرح العقيدة النسفية مع شرح عصام ص ١٣٧.

الفاء ـ الذي تقبل شفاعته (١١) .

والشفاعة قسمان مثبتة ومنفية :

١ ـ الشفاعة المثبتة : وهي التي أثبتها الله تعالى لأهل الإخلاص، ولها شرطان هما:

إذن الله تعالى للشافع، ورضاه تعالى، وهما المذكوران في قوله تعالى :

﴿ وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِي السَّمَاوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا إِلَّا مِن بَعْدِ أَن يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَن يَشَاءُ وَيَرْضَىٰ ﴾ / النجم ٢٦، وقوله سبحانه :

﴿ يَوْمَئِذٍ لَّا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَٰنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلًا ﴾ / طه ١٠٩ (١٢) .

فيقف الشافع من الله سبحانه موقف الضارع يستنزل رحمة الله وإحسانه. فالشفاعة هذه دعاء مستجاب، وسبب من الأسباب التي يرتب الله تعالى عليها المغفرة أو التخفيف أو رفع الدرجات، بدليل حديث الصحيحين وغيرهما : (أن النبي صلى الله عليه وسلم يسجد يوم القيامة، ويثني على الله تعالى الثناء يلهمه يومئذ، فيقال له : ارفع رأسك، وسل تعط، واشفع تشفع) .

وليس في الشفاعة بهذا المعنى أن الله تعالى يرجع عن إرادة كان قد أرادها لأجل الشافع، بل مرد ذلك كله الإرادة الأزلية والعلم القديم (١٣) .

٢ ـ الشفاعة المنفية : هي التي تطلب من غير الله تعالى ، أو بغير إذنه ، أو لأهل الشرك . قال سبحانه : ﴿ مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَاعَةٌ وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ / البقرة ٢٥٤ (١٤) .

فتفسر بأن يحمل الشافع المشفوع عنده على فعل كان قد أراد غيره. كأن يطمع ضعيف في معروف لدى عظيم، ويعتقد أنه ينوي حرمانه من معروفه، فيستشفع إليه بوجيه مقرب لديه، يحمله على أن يشمله بمعروفه وإحسانه.

---

(١١) لوامع الأنوار البهية ج٢ ص ٢٠٤.

(١٢) الكواشف الجلية عن معاني الواسطية ص ٣٥٢.

(١٣) الشرح الجديد لجوهرة التوحيد للعدوي ص ١٤٠.

(١٤) الكواشف الجلية السابق.

أي أن فضل أُمته لا يحصل إلا باتباع أوامره صلى اللّه عليه وسلم ، والانتهاء عن نواهيه والاهتداء بهديه صلى اللّه عليه وسلم.

فإذا قيل :

إن الرسول صلى اللّه عليه وسلم نهى عن التفضيل بأحاديث منها :

أ ـ قوله صلى اللّه عليه وسلم : **(لا تُخَيِّروا بين الأنبياء)** (٨) .

ب ـ وقوله صلى اللّه عليه وسلم : **(لا ينبغي لعبد أن يقول : أنا خير من يونس بن متى)** (٩) .

فالجواب :

أن هذه الأحاديث محمولة على أنه صلى اللّه عليه وسلم قالها على سبيل التواضع ونفي العجب، أو أن المقصود منها ألاّ يفضل بينهم تفضيلاً، يؤدي إلى تنقص بعضهم أو الغض منهم (١٠) .

شفاعة الرسول محمد صلى اللّه عليه وسلم

الشفاعة لغة : الوسيلة والطلب.

وعرفاً : سؤال الخير للغير.

وهي مشتقة من الشفع الذي هو ضد الوتر. فكأن الشافع ضم سؤاله إلى سؤال المشفوع له. والمشفّع ـ بكسر الفاء ـ : الذي يقبل الشفاعة، والمشفَّع ـ بفتح

---

(٨) رواه البخاري ـ في كتاب الخصومات ـ باب ما يذكر في الأشخاص والخصومة بين المسلم واليهود ج٣ ص ١٥٩.

(٩) أخرجه مسلم في كتاب الفضائل ، والبخاري في كتاب الأنبياء / متفق عليه ـ اللؤلؤ والمرجان ص ٦٢٧.

(١٠) تفسير الرازي في تفسير آية البقرة ٢٥٣ ﴿ تلك الرسل فضلنا بعضهم على بعض ﴾ ج٦ ص ١٩٤ وقد جاء بتسع عشرة حجة على هذا مع مناقشة المخالفين. وانظر الشفا ج١ ص ٢٢٥ ـ ٢٢٨ والتفتازاني في شرح العقيدة النسفية مع شرح عصام ص ١٣٧.

والشفاعة بهذا المعنى مستحيلة بالنسبة لله تعالى، لأن المشفوع عنده كان عاقداً النية على أمر خلاف ما شفع عنده فيه، فيجيء الشفيع ويبدي له أسباباً للفعل أو الترك لم يكن عالما بها من قبل، والله سبحانه لا يقع في ملكه إلا ما هو به عليم مريد، ولا يستطيع أحد أن يتصرف في إرادته ومشيئته.

ويؤدي هذا المعنى أيضاً إلى القول بالبداء، بمعنى أن الله تعالى يبتديء تدبير الأشياء أولاً فأولاً، ويستأنف علمها من جديد بعد أن لم يكن عالماً بها، وكل ذلك محال على الله سبحانه.

وهذا هو الذي أنكره الله تعالى بالآيات النافية، منها: ﴿ فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ ﴾ / المدثر ٤٨، و ﴿ يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْئًا وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ ﴾ / الإنفطار ١٩، و ﴿ مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ ... ﴾ الآية السابقة (١٥).

أنواع الشفاعة:

ذكر العلماء أنواعاً عديدة للشفاعة المثبتة، منها: ـ

١ ـ الشفاعة العظمى الخاصة بنبينا محمد صلى الله عليه وسلم من بين سائر إخوانه من الأنبياء والمرسلين، وهي التي يشفع فيها لأهل الموقف، حتى يقضى بينهم، ويراحوا من شدة الموقف وهوله، بعد أن يتدافعها الأنبياء أصحاب الشرائع آدم إلى نوح وإبراهيم وموسى وعيسى عليهم الصلاة والسلام. وهي المقام المحمود. ووردت في ذلك جملة من الأحاديث الصحيحة عن جملة من الصحابة، بلغت حد التواتر.

٢ ـ شفاعته في إدخال قوم الجنة بغير حساب، بدليل حديث عُكَّاشَة بن مِحْصَن في الصحيحين حين دعا له رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يجعله من السبعين ألفاً الذين يدخلون الجنة بغير حساب، وهم الذين لا يسترقون ولا يكتوون ولا يتطيرون وعلى ربهم يتوكلون.

---

(١٥) الشرح الجديد السابق.

٣ ـ فيمن استحق دخول النار أن لا يدخلها. وذلك بمحض عفو الله تعالى.

٤ ـ في إخراج الموحدين من النار بعد انقضاء مدة المؤاخذة المقررة لهم في علم الله تعالى.

٥ ـ الشفاعة في بعض الكفار لتخفيف العذاب عنهم.

٦ ـ في رفع درجات أناس في الجنة (١٦).

أما النوع الأول من الشفاعة والثاني والسادس فلا خلاف فيها، وكذلك ينبغي أن لا يكون في الخامس خلاف.

لكن الخلاف في النوعين الثالث والرابع، فهما اللذان تنكرهما المعتزلة.

واحتجوا على إنكار الشفاعة فيمن استحق دخول النار (وهو النوع الثالث) بما يأتي :

١ ـ قوله تعالى : ﴿ وَٱتَّقُوا۟ يَوْمًا لَّا تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْـًٔا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَٰعَةٌ ﴾ / البقرة ٤٨ .

٢ ـ قوله تعالى : ﴿ مَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ ﴾ / غافر ١٨ .

وأجاب الجمهور بما يأتي :

١ ـ بأن المراد بالنفس بالآية الأولى هو النفس الكافرة، لأن مساق الخطاب معهم، والآية نزلت رداً على اليهود الذين يزعمون أن آباءهم تشفع لهم. والظالمون في الآية الثانية هم الكفار، فإن الظالم على الاطلاق هو الكافر.

٢ ـ إن غفران غير الكفر من الذنوب بلا توبة ولا شفاعة جائز، فبالشفاعة أولى. ولأن العقاب حقه تعالى فله أن يعفو ويصفح ، وله أن يعاقب . قال تعالى : ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَعْفُوا۟ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ﴾ / الشورى ٢٥ ، ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ﴾ / الزمر ٥٣ .

---

(١٦) الشرح الجديد ص ١٤١ . وانظرها وغيرها في : شرح العقيدة الطحاوية ص ١٩١ ـ ١٩٨ ولوامع الأنوار البهية ج٢ ص ٢٠٤ وما بعدها.

وروى أبو داود عن أبي الدرداء رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : (**يشفع الشهيد في سبعين من أهل بيته**) (١٨) .

حكمة الشفاعة :

والحكمة من الشفاعة تكريم الشافعين، ورفع شؤونهم على رؤوس الأشهاد، وإفاضة الكرم الإلهي على المشفوع له (١٩) .

وليس القول بالشفاعة إعداد الناس للجرأة والجسارة على المعاصي، كما توهمه البعض.

لأنه ليس في علم أي شخص أنه يشفع له، حتى يكون ذلك جالباً لإقدامه عليها (٢٠) .

أصول دعوة الرسول الأعظم صلى الله عليه وسلم :

تتجلى دعوة الرسول محمد صلى الله عليه وسلم في جزئي الشهادة، اللذين هما الركنان الأساسيان لها (٢١) ، ويندرج تحتها كل الجزئيات والتعاليم الإسلامية.

الركن الأول :

الإيمان بوجود الله تعالى، وبوحدانيته، وأنه يتصف بصفات تليق بكماله. وقد تحدثنا عن هذا الركن في قسم الإلهيات من هذا الكتاب، وذكرنا ما يجب وما يستحيل وما يجوز في حقه تعالى.

ويكفي أن نشير إلى أن القرآن العظيم نبذ بهذا الركن عقيدة التثليث عند

---

١٨) نور الإسلام ـ الشيخ عبد الكريم المدرس ص ٢٩١ وانظر لوامع الأنوار البهية ص٢٠٩ وشرح العقيدة الطحاوية ص ١٩٨.

١٩) نور الإسلام ص ٢٨٧.

٢٠) نور الإسلام ص ٢٨٨.

٢١) آخر العقيدة السنوسية.

النصارى والهنود، والإشراك عند اليهود، وعبادة الأصنام والنجوم والوثنية بأشكالها عند العرب وغيرهم بآيات كثيرة منها قوله سبحانه :

﴿ لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّآ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَإِن لَّمْ يَنتَهُواْ عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ / المائدة ٧٣ .

ومنها قوله تعالى :

﴿ وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ قَالَ سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴾ / المائدة ١١٦ .

وعقيدة التوحيد في القرآن أعلى المعارف التي ترقى بالإنسان إلى الأعلى.

وكان توحيد المسلمين الأولين لله وحبهم له وتوكلهم عليه، هو الذي زكى نفوسهم ، وأعلى هممهم ، وكملهم بعزة النفس ، وشدة البأس ، وإقامة الحق والعدل، ومكنهم من فتح البلاد ، ومن تحرير الناس من ظلم الملوك ، ورق الكهنة والأحبار والرهبان، فأقاموا دعائم الحضارة، وأحيوا العلوم والفنون، وتم لهم ما لم يتم لأية أمة من الأمم، حتى قال الدكتور غوستاف لوبون في كتابه (تطور الأمم) : (إن ملكة الفنون لا يتم تكوينها لأمة من الأمم الناهضة إلا في ثلاثة أجيال، أولها : جيل التقليد ، وثانيها : جيل الخضرمة، وثالثها : جيل الاستقلال والاختصاص . قال : إلا العرب وحدهم، فقد استحكمت لهم ملكة الفنون في الجيل الأول، الذي بدؤوا فيه بمزاولتها) (٢٢) ، وقد تقدم أثر عقيدة التوحيد في حياة الإنسان بما فيه الكفاية.

وهذا الركن هو المقصود بالشطر الأول من الشهادة (أشهد أن لا إله إلا الله) .

---

(٢٢) الوحي المحمدي ص ١٣١ .

وروى أبو داود عن أبي الدرداء رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : (يشفع الشهيد في سبعين من أهل بيته) (١٨) .

حكمة الشفاعة :

والحكمة من الشفاعة تكريم الشافعين، ورفع شؤونهم على رؤوس الأشهاد، وإفاضة الكرم الإلهي على المشفوع له (١٩) .

وليس القول بالشفاعة إعداد الناس للجرأة والجسارة على المعاصي، كما توهمه البعض.

لأنه ليس في علم أي شخص أنه يشفع له، حتى يكون ذلك جالباً لإقدامه عليها (٢٠) .

أصول دعوة الرسول الأعظم صلى الله عليه وسلم :

تتجلى دعوة الرسول محمد صلى الله عليه وسلم في جزئي الشهادة، اللذين هما الركنان الأساسيان لها (٢١) ، ويندرج تحتها كل الجزئيات والتعاليم الإسلامية.

الركن الأول :

الإيمان بوجود الله تعالى، وبوحدانيته، وأنه يتصف بصفات تليق بكماله. وقد تحدثنا عن هذا الركن في قسم الإلهيات من هذا الكتاب، وذكرنا ما يجب وما يستحيل وما يجوز في حقه تعالى.

ويكفي أن نشير إلى أن القرآن العظيم نبذ بهذا الركن عقيدة التثليث عند

---

١٨) نور الإسلام ـ الشيخ عبد الكريم المدرس ص ٢٩١ وانظر لوامع الأنوار البهية ص٢٠٩ وشرح العقيدة الطحاوية ص ١٩٨.

١٩) نور الإسلام ص ٢٨٧.

٢٠) نور الإسلام ص ٢٨٨.

٢١) آخر العقيدة السنوسية.

الركن الثاني : الإيمان برسول الله محمد صلى الله عليه وسلم.

ومعناه :

أ ـ وجوب التصديق بأنه نبي الله تعالى وخاتم المرسلين .

ب ـ وجوب التصديق بما أخبر به .

جـ ـ وجوب طاعته في كل ما صدر عنه من قول أو فعل أو تقرير من الأوامر والنواهي، ووجوب اقتفاء آثارهم، والتزام طريقته في سبل الحياة كلها، لأن طاعته من طاعة الله ، قال تعالى : ﴿ مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ ﴾ / النساء ٨٠. وقال سبحانه: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾ / الحشر ٧ . وقال تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا ﴾ / الأحزاب ٣٦ . . . إلخ فيدخل في هذا الركن :

الإيمان بالملائكة والجن والمغيبات جميعاً والإيمان بسائر الأنبياء بلا تفريق، وما يجب في حقهم من صفات، وما يستحيل، وما يجوز، وبكتبهم السماوية جميعاً التي أنزلت عليهم، والتي هي موافقة في أصولها القرآن الكريم، لأن مصدرها واحد وهو الله تعالى، وتكفل بالكلام عن هذا موضوع (النبوات) كما تقدم.

والإيمان باليوم الآخر، وهو يوم الجزاء عند القيامة، وهو الباعث على العمل الصالح وترك المنكرات، ومقوي الوازع النفسي الذي يصد الإنسان عن الشر والظلم. وسيأتي كلام واف على هذا في فصل الحياة الأخرى.

وهذا الركن هو المقصود بالشطر الثاني من الشهادة (وأشهد أن محمداً رسول الله) .

وبهذا يتبين أن كلمة الشهادة بشطريها، قد شملت مع قلة حروفها ما يجب على المسلم الإيمان به في عقيدته وشريعته، أو بعبارة أخرى :

هي التصديق بأن دين الله تعالى (الإسلام) هو الدين الحق، الذي يجب أن

يؤمن الفرد بكل ما جاء به من جزئيات.

وهذا هو السر في جعل كلمتي الشهادة عنوان الدخول في الدين الإسلامي، إذ لا يقبل الإسلام من أحد إلا بالنطق بشطريها معاً.

فعليه أن يكثر من ذكرها، كما هو المأثور في الأحاديث الصحيحة، مستحضراً لما حوته من معان جليلة، فتمتزج مع معناها بلحمه ودمه.

واجبنا نحو الرسول الأعظم صلى الله عليه وسلم

بعد أن أنعم الله على المسلم بأن آمن بالله ونبيه الأعظم. كان عليه أن يعرف واجبه نحوه وهو :

١ ـ محبته أكبر من النفس والولد، والمال والناس.

قال النبي صلى الله عليه وسلم : **(لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من والده وولده والناس أجمعين)** (٢٣).

وهذه المحبة لا تتجلى إلا في طاعته طاعة كاملة في كل ما يقول.

٢ ـ تبجيله واحترامه حياً وميتاً، ففي حياته : لا يجوز سبقه بالحديث، قال تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ﴾ / الحجرات ١.

ولا يجوز رفع الصوت أمامه، قال تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرْفَعُوٓاْ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُواْ لَهُۥ بِٱلْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَٰلُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴾ / الحجرات ٢.

ويبقى هذا الاحترام حتى بعد مماته، فلا يرفع الصوت عند قبره أو في مسجده صلى الله عليه وسلم، كما يجب التأدب عند سماع حديثه، والرضا بما قال، وعدم الخروج عليه.

---

(٢٣) اخرجه أحمد والبخاري ومسلم والنسائي وابن ماجة عن أنس وهو صحيح / الجامع الصغير ج٢ ص ٢٠٤.

٣ ـ عدم ايذائه بأي نوع من أنواع الأذى.

قال تعالى : ﴿ وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ / التوبة ٦١ .

والإيذاء شامل : للسب، أو الطعن به، أو بشرعه، أو بزوجاته الطاهرات، قال تعالى: ﴿ ٱلنَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ ۖ وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمْ ﴾ / الأحزاب ٦. أو الطعن بآل بيته، أو أصحابه، أو سبهم . . .

٤ ـ الصلاة والسلام عليه.

قال تعالى : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ ۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ صَلُّوا۟ عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴾ (٢٤) / الأحزاب ٥٦ .

٥ ـ وجوب التأسي بالرسول صلى الله عليه وسلم، قال تعالى : ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴾ / الأحزاب ٢١ . والتأسي هو الاقتداء به في كل أقواله وأفعاله صلى الله عليه وسلم.

(٢٤) انظر الشفا للقاضي عِياض، وأصول الدعوة ص ٣٦ ـ ٣٧.

المبحث الثالث

اليوم الآخر في الإسلام

معناه :

من الأمـور المسلم بها في الدين الإسـلامي الاعـتـقاد بحياة أخرى بعد الموت، يبـعث الناس بعـد موتهم، ويحاسبون على ما قدموا من أعمال، فيجازون عليها، فأما الذين آمنوا وعـملوا الصـالحـات فلهم جنة الخلد، وأمـا الذين كفروا وعملوا السيئات فلهم النار، يشـقون فيها بالعذاب الشديد : ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ / الـزلزلة ٧ ـ ٨ .

تسميته :

سـمي باليـوم الآخر لأنه آخر أيام الدنيا، بمعنى أنه متصل بآخر أيام الدنيا، لأنه ليس منها، حتى يكون آخرها.

وسـمي بيـوم القيامة لقيام الناس فيه من قبورهم، وقيامهم بين يدي خالقهم، وقـيام الحجة لهم وعليهم، وله نحو ثلاثمائة اسم (*) .

حكم الإيمان باليوم الآخر :

الإيمان باليـوم الآخـر ركن من أركـان الإيمان، يكفـر من لا يؤمن به بالإجماع، على مـا تقـدم ويأتي بيانه. وقد فصل القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف أخبار اليـوم الآخـر، ومـا يتصل به من مشاهد القيامة وفصل أوصاف أهله في الجنة والنار، برزت فـيـه المشـاهد حـيـة واضحة مكتملة السمات، تخفق لها القلوب، وتقشعر منها الأبدان.

(*) الباجوري على الجوهرة ج ٢ ص ٧٦.

عندئذ مثل من ينبيء شخصاً بوصول الإنسان إلى القمر، وذلك ينكر وصوله، وهو يجهل الأمور البدهية، التي صار إليها علم الفلك الآن.

فالمجادل في الحياة الآخرة نحيله إلى البراهين القطعية على وجوده تعالى، وقدرته وصفاته الكاملة التي أسلفناها في باب الإلهيات.

فإذا ثبت لنا وجوده تعالى، وثبتت النبوة، فيجب عندئذ أن يكون هناك بعث ومحاسبة، يجزى المرء حسب عمله، قال تعالى: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ / الزلزلة ٧ ـ ٨ /، وإلا يلزم الظلم بالنسبة للخالق، إذا ترك محاسبة العاصي وإثابة المطيع، والظلم محال على الله تعالى.

الحياة الأخرى

انقطاع العمل بالموت:

يقول الرسول صلى الله عليه وسلم:

(إذا مات الإنسان انقطع عمله إلا من ثلاثة: إلا من صَدَقة جارية، أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له) / رواه مسلم ـ كتاب الوصية.

فالموت هو الحد الفاصل بين الحياة الدنيا وبين الآخرة، وعليه فإن منازل الآخرة تبدأ بمجرد مغادرة الروح البدن.

وهنا سنتحدث عن هذه المنازل مسلسلة مبتدئاً بالموت، وما يتصل به، وما يتبعه إلى قيام الساعة ومايتلوها من مشاهد، حتى استقرار الإنسان في الجنة أو النار.

سوء الخاتمة والأعمال بالخواتيم

عن أبي هريرة رضي الله عنه. أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال:

(إن الرجل ليعمل الزمن الطويل بعمل أهل الجنة، ثم يختم له عمله

بعمل أهل النار، وإن الرجل ليعمل الزمن الطويل بعمل أهل النار، ثم يختم له عمله بعمل أهل الجنة) / رواه مسلم ـ كتاب القدر.

وعن سهل بن سعد عن النبي صلى الله عليه وسلم قال :

(إن العبد ليعمل عمل أهل النار وإنه من أهل الجنة، ويعمل عمل أهل الجنة وإنه من أهل النار، وإنما الأعمال بالخواتيم) / رواه البخاري ـ كتاب القدر.

وتكون سوء الخاتمة :ـ

أ ـ لمن أصر على الكبائر، وأقدم على المحرمات، فربما غلب عليه ذلك، حتى ينزل به الموت قبل التوبة. فيصطلمه الشيطان عند تلك الصدمة.

ب ـ لمن كان مستقيماً ثم يتغير عن حاله، ويخرج عن سنته.

لذلك قال العلماء :

(فلا تعجب بإيمانك وعملك، وصلاتك وصومك، وجميع قُرَبك، فإن ذلك وإن كان من كسبك فإنه من خلق ربك . . فمهما افتخرت بذلك كنت كالمفتخر بمتاع غيرك، وربما سلبه عنك فعاد قلبك من الخير أخلى من جوف الطير، فكم من روضة أمست وزهرها يانع عميم، فأصبحت وزهرها يابس هشيم. . . كذلك العبد يمسي وقلبه بطاعة الله مشرق سليم، فيصبح وهو بمعصيته مظلم سقيم) (٣).

ولذلك أوجب الله تعالى التوبة على المؤمنين، لتحسن خاتمتهم، ويكون مصيرهم الجنة، فإن العبد لا يدري متى تقبض روحه، إذ إن الموت يأتي على الصغير والكبير، والصحيح والسقيم.

فلا بد أن يبادر الإنسان إلى طاعة ربه، ما دام مكلفاً شرعاً، لأن سن التكليف يتعلق به الثواب والعقاب. والطاعة سبيل الوصول إلى جنة الفردوس.

---

(٣) التذكرة في أحوال الموتى وأمور الآخرة ـ للقُرْطُبي ص٣٦ـ٣٨.

عندئذ مثل من ينبيء شخصاً بوصول الإنسان إلى القمر، وذلك ينكر وصوله، وهو يجهل الأمور البدهية، التي صار إليها علم الفلك الآن.

فالمجادل في الحياة الآخرة نحيله إلى البراهين القطعية على وجوده تعالى، وقدرته وصفاته الكاملة التي أسلفناها في باب الإلهيات.

فإذا ثبت لنا وجوده تعالى، وثبتت النبوة، فيجب عندئذ أن يكون هناك بعث ومحاسبة، يجزى المرء حسب عمله، قال تعالى: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ / الزلزلة ٧ ـ ٨، وإلا يلزم الظلم بالنسبة للخالق، إذا ترك محاسبة العاصي وإثابة المطيع، والظلم محال على الله تعالى.

الحياة الأخرى

انقطاع العمل بالموت:

يقول الرسول صلى الله عليه وسلم:

(إذا مات الإنسان انقطع عمله إلا من ثلاثة: إلا من صَدَقة جارية، أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له) / رواه مسلم ـ كتاب الوصية.

فالموت هو الحد الفاصل بين الحياة الدنيا وبين الآخرة، وعليه فإن منازل الآخرة تبدأ بمجرد مغادرة الروح البدن.

وهنا سنتحدث عن هذه المنازل مسلسلة مبتدئاً بالموت، وما يتصل به، وما يتبعه إلى قيام الساعة ومايتلوها من مشاهد، حتى استقرار الإنسان في الجنة أو النار.

سوء الخاتمة والأعمال بالخواتيم

عن أبي هريرة رضي الله عنه. أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال:

(إن الرجل ليعمل الزمن الطويل بعمل أهل الجنة، ثم يختم له عمله

التوبة

التوبة في أصل اللغة : الرجوع. يقال : تاب أي رجع.

وفي الاصطلاح: الرجوع عما كان مذموماً في الشرع إلى ما هو محمود فيه (٤).

قال النبي صلى الله عليه وسلم : **(ان الله يقبل توبة العبد ما لم يغرغر)** أخرجه الترمذي . أي : عند الغرغرة وبلوغ الروح الحلقوم ، وإنما يغرغر إذا قطع الوتين.

والتوبة فرض على المؤمنين باتفاق المسلمين، بدليل :

قوله تعالى : ﴿ وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ النور ٣١ .

وقوله : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ تُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا ﴾ التحريم ٨ .

شروط التوبة :

١ ـ الندم بالقلب على ما اقترف من معصية.

٢ ـ ترك المعصية في الحال.

٣ ـ العزم على أن لا يعود إلى مثلها.

٤ ـ أن يكون ذلك حياء من الله تعالى وخوفاً منه لا من غيره.

فإذا فقد شرط من هذه الشروط لم تصح التوبة (٥) .

هذا إذا كانت المعصية بين العبد وبين الله تعالى لا تتعلق بحق لآدمي.

فإن كانت متعلقة بحق آدمي، فيشترط بالإضافة إلى الشروط المتقدمة : أن

---

(٤) الرسالة القشيرية، مصر سنة ١٩٥٧، ص ٤٥.

(٥) التذكرة للقُرْطُبي ص ٤٥ ـ ٤٦، وفي الرسالة القُشَيرية ص ٤٥ ورياض الصالحين ص ١٨ ـ ١٩ لم يذكر الرابع.

يبرأ من حق صاحبها، فإن كانت مالاً أو نحوه رده إليه، وإن كانت حد قذف ونحوه مكنه منه، أو طلب عفوه، وإن كانت غيبة استحله منها (٦) .

أما حديث (الندم توبة) (٧) ، فهو نص على معظمه، أي معظم أركانها الندم. فهو كما قال النبي صلى الله عليه وسلم : (الحج عرفة) (٨) . أي معظم أركانه عرفة (أي الوقوف بها) .

ومن أهل التحقيق من قال : يكفي الندم من تحقيق ذلك، لأن الندم يستتبع ما بعده، فإنه يستحيل تقدير أن يكون نادماً على ما هو مصر على مثله، أو عازم على الإتيان بمثله (٩) .

المـــوت

تعريفه :

الموت ليس بعدم محض، ولا فناء صرف، وإنما هو انقطاع تعلق الروح بالبدن، ومفارقته، وحيلولة بينهما، وتبدل حال، وانتقال من دار إلى دار (١٠) .

والروح : جسم لطيف شفاف، حي لذاته، مشتبك بالبدن اشتباك الماء بالعود الأخضر، وعند مفارقته الجسد ينقطع تصرفه، فإن الأعضاء آلات للروح تستعملها حسب مشيئتها (*) .

---

(٦) رياض الصالحين السابق.

(٧) رواه أحمد وابن ماجة والحاكم. وهو صحيح / الجامع الصغير ج٢ ص١٨٩ .

(٨) رواه أحمد وأصحاب السنن الأربعة والحاكم في المستدرك والبيهقي وهو صحيح / الجامع الصغير ج١ ص١٥١ .

(٩) الرسالة القشيرية ٤٥ ـ ٤٦ .

(١٠) التذكرة ص ٤ .

(*) رسالة في التوحيد والفرق المعاصرة ص ١٠٠ .

قال تعالى : ﴿ اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَى عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَى إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ / الزمر ٤٢ .

وقال تعالى : ﴿ وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ ﴾ / الأنعام ٦١ .

فالروح تغادر الجسم، وهو في أكمل حالات الصحة. هذا هو التعريف الذي ذكره المسلمون وآمنوا به.

أما ما ذكره بعضهم من أن :

أ ـ الموت هو توقف القلب عن النبض.

فقد انهار في السنوات الأخيرة بزراعة القلوب أو الأجهزة الصناعية.

ب ـ الموت هو موت خلايا المخ.

فقد انهار أيضاً ، حينما أعلنت مستشفى جامعة طوكيو نجاحها في إعادة مخ رجل للحياة، بعد أن توقف نشاطه عدة شهور (١١) .

وأخفقت جميع البحوث التي استهدفت أن تجعل من الموت أمراً غير يقيني، فبقي الاحتمال الذي أكدته الأزمان، وهو أن يموت الإنسان في أي عمر، وفي أي زمن. حتى قال د . كارل بعد أن بحث المشكلة وذكر تلك الجهود المخفقة :

(أنّ الإنسان لا يسأم أبداً من البحث عن الخلود والسعي وراءه، مع أنه لن يظفر به إلى الأبد، فتركيبه الجسماني يخضع لقوانين معينة، إنه يستطيع أن يوقف الزمن الفسيولوجي لأعضاء الجسد، حتى يؤخر الموت لفترة قصيرة، ولكنه لن يتغلب على الموت أبداً) .

لذلك قال الدكتور (لنس بالنج) الحائز على جائزة نوبل للعلوم :

---

(١١) يوم القيامة ـ عبد الرزاق نوفل ص ٦٠ ـ ٦٢ . وانظر تعاريف اخرى في: الإسلام يتحدى ـ وحيد الدين خان، ط ٤ ص ٧٣ .

(إن الإنسان أبدي إلى حد كبير نظرياً، فإن خلايا جسمه آلات تقوم بإصلاح ما فيه من الأمراض ومعالجتها تلقائياً، وبرغم ذلك فإن الإنسان يعجز ويموت، ولا تزال علل هذه الظاهرة أسراراً تحير العلماء) (١٢) .

ما يتبع الميت إلى قبره وبعد موته وما يبقى معه فيه :

بين الرسول صلى الله عليه وسلم ذلك في هذين الحديثين :

عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : **(يتبع الميت ثلاثة، فيرجع اثنان، ويبقى واحد، يتبعه أهله وماله وعمله، فيرجع أهله وماله ، ويبقى عمله)** (١٣) .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : **(إن مما يلحق المؤمن من عمله وحسناته بعد موته : علمًا علمه ونشره، وولداً صالحاً تركه، ومصحفاً ورّثه، أو مسجداً بناه، أو بيتاً لابن السبيل بناه، أو نهراً أجراه، أو صدقة أخرجها من ماله في صحته وحياته يلحقه من بعد موته)** (١٤) .

ولا تنافي بين الحديثين لما يأتي :

أ ـ إما لأن مفهوم العدد غير حجة.

ب ـ وإما لأنه اطلع أولاً على ما في حديث مسلم، ثم أطلعه الله على الزائد فأخبر به (*) .

---

(١٢) الإسلام يتحدى، ص ٧٣ ـ ٧٤ وانظر قول د . كارل في كتابه الإنسان ذلك المجهول ترجمة شفيق أسعد فريد ص ٢٠٩ في فصل الزمن الداخلي.

(١٣) أخرجه مسلم واللفظ في أول كتاب الزهد والرقائق ج ٤ ص ٢٢٧٣، والبخاري في الرقاق ـ باب سكرات الموت ج ٨ ص ١٣٤ .

(١٤) رواه ابن ماجة في المقدمة ـ باب ثواب معلم الناس الخير ج١ ص ٨٨، وهو حديث حسن / الجامع الصغير ج١ ص ١٠٠ .

(*) دليل الفالحين ج٣ ص ٤٣٣ .